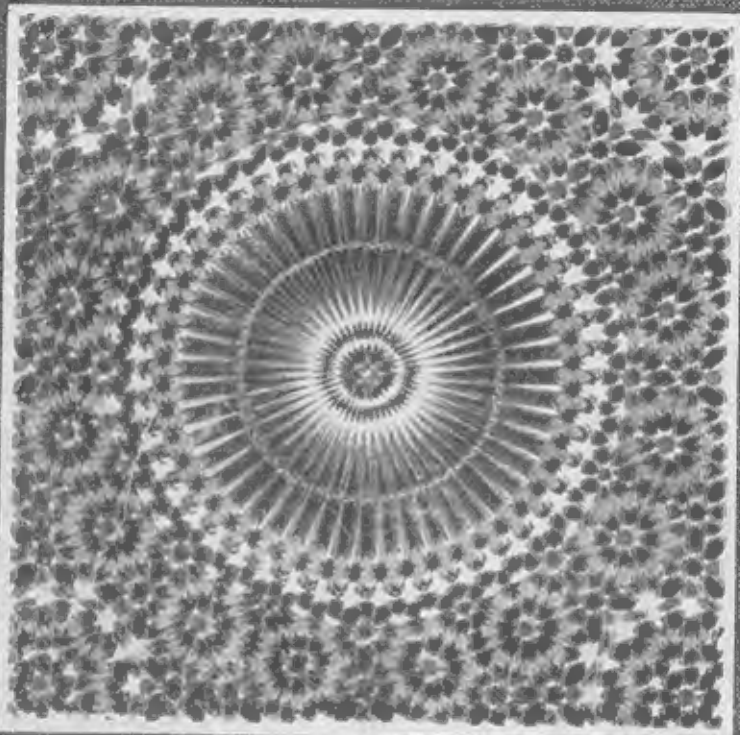


محمد المكي إبراهيم



الفكر السوداني

أصوله وتطوره

جامعة الخرطوم

الطبعة الاولى ١٩٧٦

الطبعة الثانية ١٩٨٩م

University of Khartoum Library
Sudan Library
Acc. No. 317768
Class Mark J N

model

الطابعون : مطبعة أرو التجارية



UNIVERSITY OF KHARTOUM LIBRARY

إلى الشاعر المجيد الدكتور
محمد عبد الحى
في ذكرى تلك
الاقامة الرائعة عام ١٩٦٥
التي كُتبت فيها بعض هذه
الفصول

بقية الطبعة الثانية

فرغت من كتابة هذه الفصول عام ١٩٦٥ ونحن في مطالع الشباب فأخذت عن الشباب حديثه وعنفوانه وقد نصحتني الكثيرون بمراجعتها وتوسيعها ولكنني رأيت إرجاء ذلك وحرصت على نشرها على هيئتها الأولى أملاً أن يستفيد الباحثون مما انطوت عليه من الحدة والعنفوان في اقتراح المواضيع والتعرض لها وبذهني من طوائف الباحثين المشتغلون برسائل الماجستير أو أطروحات الدكتوراه ففي هذه الفصول الكثير مما يمكن أن يقترح نفسه عليهم ليتوسعوا فيه بالتنفيذ أو التأييد.

ظهرت هذه الفصول عام ١٩٧٦ في كتيب لم يكن جميل الطباعة وبأعداد اقرب ما تكون للقلة فلم تجد حظها من الذبوع والانتشار وقد رأينا إعادة الطبعة وتصحيحها حرصاً على وصولها للقراء الكرام قبل أن تدخلها يد التشذيب والتنقيح طبعة تالية.

لم اجد في نفسي كبير اختلاف مع الآراء المطروحة في هذه الفصول رغم تقادم العهد ولكنني ابصر بوضوح تام مواطن الضعف وامكانيات التحسين الكثيرة في الشواهد والصياغة وعنها اعتذر للمقاريء الكريمين آملاً إستدراكها في الطبعة التالية باذن الله.

والله نسأل ان تحظى بالقبول وان تحقق بعضاً من النفع.

هذا ولا يفوتني ان اسجل جزيل شكرى وعاطر ثنائى لاختوى الفنان المبدع عبدالحميد ميرغنى والفنانة انعام الحاج لما قاما به من جهد مقدر مشكور في الاشراف على جمع هذا الكتاب وتصحيحه وتصميمه واخراجه على هذه الهيئة الطيبة جزاهما الله عنى وعن الثقافة خير الجزاء.

القسم الاول

الاصول

أصول الفكر السوداني

حين دكت ارجال الغزاه امبراطوريات بعانخي وترهاقا وحين طمرت
رمال الصحراء حضارات نبتة ومروى كانت الارض السودانية قد فقدت مرة
والي الابد لوالالمبادرة الحضارية التي ظلت ترفعه طوال اجيال متلاحقة
 واصبحت مجموعة البشر التي تعمورها يتيمة واضائعة، في عالم مضطرد
التقدم والتمدن متجدد الحضارات. عندئذ لم يكن غريبا ان يستورد السودان
الديانة المسيحية، وان تنهض علي اساسها ثلاث دويلات سودانية هي: علوه
والمقره والنوبة وان تظل تلك الدويلات ضعيفة ومتنازعة حتي يكتسحها امامه
الغزو العربي الوافد.

لم يكن دفعا مفاجئا، ولا صدمة عارمة، وانما كان عملية بطيئة صبورة
تسير بثبات وثبت ويقين فمنذ ٦٤١م كان المد العربي يحفر مجراه في شمال
الارض السودانية متدفقا نحو الجنوب بسيله هادئة ومطمئنة. وعبر المعاهدات
والمهادنات وعمليات التبادل التجاري رسخت القدم العربية وبدأت زحفها
الواثق حتي تم لها النصر الكامل علي مملكة النوبة في القرن العاشر ومملكة المقره
في القرن الرابع عشر، وكان المدماك الاخير حين هجمت قبائل الفونج
المستعربة علي مملكة علوه المسيحية فهدمتها، واقامت مكانها السلطنة الزرقاء
التي استمرت من ١٥٠٥ الي ١٨٢١.

إن الميلاد الحقيقي للثقافة العربية في السودان يبدأ بعهد الفونج. ولكن
هذا لا يعني ان الثقافة العربية لم تدخل السودان الا مع ذلك العهد لانه ثابت
ان الثقافة العربية اكتسبت مكانها المشروع بين ثقافات السودان، في طليعة
الغزو وليس علي اعقابه، فقد تسربت مع قوافل الحجيج. وفي اخراج التجار
وحقائب الدعاة والمسافرين، وعلي الدوام كان المسجد يقام والاذان يدوي في
ممالك السودان المسيحية لتأتي علي صدهاء جحافل الفتح العربي بل ان تاريخ
الثقافة العربية في السودان، يضرب في اعماق التاريخ الي بعد اعمق من ذلك
يعود الي ما قبل الاسلام والي ايام الخلفاء الاول، ولكن تلك البواكير لم تخرج
عن مستوى اللقاء العابري الي مجالات التأصل والترسيخ.

في البداية كان هنالك جموع من القبائل العربية تعايش خليطاً من قبائل
السودان الحامية والزنجية. وعلي امتداد العصور بدأ العرب الوافدون يختلطون
بأهل البلاد اما مصاهرة واما استرقاقاً. ومن خلال هذا التلاقح ظهر الي الوجود

مخلوق جديد هو السوداني الحديث، الذي لا يشكل دماً عربياً خالصاً أو دماً زنجياً خالصاً، ولكنه بالتأكيد يجمع في انسجته بين ذينك النوعين من الدماء، ويحلم في دماغه نتاج الثقافة الأقوى والأكمل: الثقافة العربية وعلى حين أنه كان مقدوراً أن ينقرض العرب الخالص رويداً رويداً، أو يعتصموا بالبوادي بعيداً عن كل تأثير أو تأثير، وإن ينغزل الزنوج داخل الغابات الاستوائية، ويخفت صدى ثقافتهم الوطنية - بذلك الحين كان السوداني الجديد يزداد تركيزاً وتنحاز إليه اعداد هائلة من الوطنيين المستعربين، الذين نبذوا دياناتهم الوثنية والمسيحية ليدخلوا الاسلام. وتخلوا عن انسابهم الاصلية مدعين لانفسهم انساباً عربية ربما بدأ عليها طابع المغالاة في معظم الاحوال، لاتصالها الدائم بالرسول الكريم واعمامه وكبار صحابته.

وفي عهد الفونج استقرت السلطة السياسية في البلاد، في ايدي العناصر المستعربة، من الذين ينحدرون من اصول عربية مهجنة، او الذين صنعوا لانفسهم ذلك النوع من الانساب. فالفونج انفسهم كانوا على احسن الفروض من المستعربين، اذ تختلف الروايات حول اصلهم فمن قائل انهم من الشك او من تشاد ومن قائل انهم من بقايا الامويين الذين هربوا الى الحبشة من وجه العباسيين والفور في سلطنة دارفور كانوا من عناصر حامية مستعربة، واما حكام مملكة تغل فكانوا اصلاً من قبيلة الجعليين العربية، ولكن انسابهم سرعان ما ضاعت اثر اختلاطهم بالوطنيين وبقيائهم اليوم تعرف بالتقلاويين مميّزاً لهم عن الجعليين من جهة، وعن قبائل جبال النوبة من جهة أخرى. وقد نتج عن تركز السلطة السياسية في ايدي السودانيين ان تجمعت بين ايديهم اعنة القيادة الفكرية والروحية في المجتمع، فظهر فقهاء وشعراء ومتصوفة من صفوف ابناء الاماء والسراري، كاسماعيل صاحب الربابة، وعبدالله صابون، والشيخ موسى ابوقصة، وبان النقا الضرير. كما ظهر عشرات من العلماء الذين ينتمون الى اصول نوبية مسلمة كالذناقلة والمحس والبجا. لذلك ربما كان من الجائز تاريخياً، ان نقرر ان اسلام السودان وتعريبه لم يتم على ايدي العرب الوافدين، وانما على ايدي هؤلاء المستعربين وفي ظل دولة مستعربة هي دولة الفونج.

والشيء البارز في حيوات هؤلاء القادة، وحيوات الاجيال اللاحقة، هو مايشبه عقدة عرقية، فمع تسلسل انسابهم واتصالها بقبائل العرب العريقة، الا ان اختلاطهم بالعناصر المحلية افقدهم الكثير. فقد الوافد العربي إهابه

الاسمر واكتسب درجات متفاوتة من السواد وفقد قسماته المميزة او جزء منها، وفقد التصاقه الحميم باصوله العربية. وإلى جانب ذلك كان يواجه ما يشبه التحدى. بل كان هنالك حقيقة نوع من التحدى الزنجى، يهدد العناصر العربية بالامتصاص والذوبان، ومن هذين المنبعين جاء ذلك التأكيد الغريب على مسألة العرق وما يلى بها من مسائل لغوية ودينية، فقد كان الوافد العربى يقدر جهله (١) وعجزه عن الصمود امام تيارات التحريف والتأقلم ومن ناحية ثانية كان يعى حقيقة انزاله عن التيارات الحضارية الجديدة فى الوطن العربى الام، وكنيجة لذلك بدأت فى السودان وبطريقة جادة عملية استيراد واستضافة الفقهاء والعلماء من مختلف البلاد العربية. واستمرت هذه الظاهرة عبر عصور التاريخ السودانى الحديث، وتواصلت كجزء من القاعدة الاخلاقية للشعب، بحيث اصبح الانسان العادى يتوقع من كل وافد ان يكون الاغزر علما والاوسع معرفة.

من مصر والمغرب والحجاز كان العلماء يقدون على السودان، وينزلون ضيوفا مكرمين على سلاطين الفونج والفور، ويجدون من الشعب الاذن الصاغية، والتقدير العطوف. بل ان نوعا من التنافس بدأ بين الممالك السودانية على استضافة العلماء وتكريمهم، وبلغ الامر لدى الملك بادى ابودقن ملك سنار، انه كان يبعث الهدايا الى علماء مصر مع خبيرة احمد ود علوان ويتلقى منهم قصائد شكر ومدح (٢). وعلى كل فان القادة والشعب كانوا يدركون طبيعة الجهل الذى يعيشونه، وبالتالى كانوا على اتم استعداد للتلقى عن العالم العربى، بدون تدقيق او تمحيص، مكتفين بالقشور والنفائات، وكل ما تطوله اليد. وقد صبغت تلك العقلية كل عصور التاريخ السودانى اللاحقة بطابعها الخاص، بحيث انه يصبح من الممكن الزعم بان عهد الفونج كان عهد التلقى بالنسبة للثقافة العربية وعهد التلمذ على البلاد العربية، وعهد الاكتفاء بالقشور الثقافية دون الباب.

(١) ولم تشهر فى تلك البلاد - اى دولة الفونج - مدرسة علم ولا قرآن يقال ان الرجل يطلق المراء ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة كتاب الطبقات للفقير وضيف الله ص ٥. وهناك اجماع بين مؤرخى السودان على ان القبائل العربية التى دخلت السودان كانت من البدو المعروفين بركة الدين وعدم التفقه فيه.

(٢) مخطوطة كاتب الشونة - ص ١٠

في ذلك العهد كانت الثقافة العربية قد تعرضت لشتى الضغوط، وخاضت العديد من المعارك ضد الشعوبيين والفرنجة (في الاندلس) والتتار والصليبيين والسلاجقة وانهكت تماما. وعندما بدأ في السودان عهد التلقى، كانت الثقافة العربية قد غدت مسخا مشوها، وضاعت ملامحها الاصلية في ضباب الهزائم والمنازعات، فلم يتلق السودان منها سوى النفايات والقشور لكونها غير قادرة على اعطاء الاكثر والاكمل. ولم يكن انذاك الثقافة العربية السبب الوحيد وراء تلك الظاهرة، فقد كان وراءها سبب اخر مهم هو نوعية الرجال الذين حملوها الى السودان، فهم بلا شك لم يكونوا قادة الفكر والرأى في عصرهم، ولا حتى من اشباه القادة - كانوا مجرد رجال عاديين، على حظ من العلم وان كانوا لا يخلون احيانا من الشعوذة والتهريج، قذفتهم شتى الدوافع الى اصقاع السودان لينشروا العلم احيانا وليجمعوا الدنيا باسم العلم في احيان اخرى. لقد غادروا اوطانهم في ظروف صعبة، وفي عهد ضاقت فيه ارزاق العلماء والمفكرين، واقتصرت مجالات الكسب امامهم على وظائف القضاء والافتاء ومشيخة العلماء التي كانت احتكارا للعلماء الممتازين، فخرج رجال الصف الثالث والرابع، وانبثوا في فجاج الارض بحثا عن الرزق والحرية. ولكن، وبغض النظر عن نوعيتهم، فان سودان القرنين السادس والسابع عشر كان دائما على استعداد للتلمذ والاصغاء، ففى هذه المرحلة لم يكن السودان يسعى الى العلم وانما كان العلم يسعى اليه. وكان السودانيون اعجز من ان يهاجروا الى الازهر او مكة والقيروان ليأخذوا العلم من مناهله نظرا لتخلف اساليب المواصلات، وعدم استتاب الامن. وعلى ذلك لم يكن مفتوحا امامهم مجال المفاضلة والاختيار، بل على العكس، كان عليهم وفقا لما يشبه التقليد، ان يتقبلوا كل وافد ويأخذوا من كل نبع.

* اللغة العربية

حمل اولئك العلماء الى السودان، اللغة العربية والفلسفة الصوفية، بوصفها المظهرين الاساسيين للفكر في القرنين السادس والسابع عشر. اما العربية التي جاءوا بها فقد كانت لغة غير صافية وملبسة بالتعقيدات والتحريرات التي ادخلتها عليها عصور الانحطاط، بحيث بدت غريبة على اذان الناس. ولم يكن احد في السودان على استعداد لتعلمها على اساس النعمة المتفاخرة التي ما زالت تزعم ان لهجة السودان الدارجة هي اصفى وافصح لهجات المنطقة العربية. وبدلا

من تلك اللغة المعقدة، ازدهرت في السودان لمحتة الدارجة خاصة واصبحت لغة الادب والشعر وتكاد جميع الاثار الادبية التي خلفها عهد الفوج تنتمي الى هذا النوع من الادب الدارج فامثال فرح ودكتوك وحكمه وقولاته الخالدة، واشعر اسماعيل صاحب الربابة وابو جروس وود قرشى وود آدم وكتاب الطبقات للفقير ود ضيف الله، كلها مصوغة في قالب عامي، احتفظ بسيرورته خلال القرون حتى وصل الينا واندرج بلا عنوان في قائمة التراث الشعبي . ولم يخضع الفكر السوداني لتأثير لغة عهود الانحطاط الا في العهد التركي حين اصبحت السلطة الحاكمة تتبناها وتتخذها لغة رسمية للمكاتبات والدواوين، واصبح لها بالتالي اثرها الواضح على المؤلفات السودانية في العهد التركي كما سيأتى .

وبرغم كل هذا، فان السودانيين اخذوا باللغة الفصيحة، ومن بعيد احتفظوا لها بأصدق التقدير، فقد كانوا يعرفون انها لغة الفقه والقرآن والحديث . وقد قرأوا بها الرسالة ومختصر خليل ومتون الاحضرى والاجهورى . ومع انهم احجموا عن تعلمها بصورة جادة الا انهم محضوا احتراماً صادقاً للرجال الذين تعلموها او بالاحرى الماها الماما طعيما . ويتجلى هذا الاحترام في كتاب الطبقات بصفة خاصة بحيث يستغرب المرء كيف فات على عالم مثل ود ضيف الله ان يضع يده على الصنف والركاكة في مثل هذا الكلام :

يامعشر الزوار اين مناحكم	وامامكم سهم القضا وافله
وامامكم قد صار ذلك مغيرا	اسف عليه قوا امد حزناه
أسف واسف ثم اسف ثالث	اسف واسف بعده ووراه
أسف عليه دولام دهر دايم	اسف عليه نكرة ومساه
أسف عليه مدى الزمل وطوله	اسف عليه فلا عوصا نلقاه
أسف على قمر بدا فى ظلمة	وطرا الكسوف لدوره اغشاه
أسف على الشمس المنيرة شيخنا	خسر الزمان وغوث ذا قطبه

لان الفقيه ود ضيف الله يقول عن هذه الركاكة المؤسية انها «قصيدة جميلة وقت بالغرض المطلوب وزيادة» .

ويبدو ان اشهر شعراء الفترة واحطاهم بالقبول هو عبدالنور بن ايض والذي كثيرا ما يشار اليه بعد النور الشاعر عما يدل على اتساع شهرته كشاعر .

وفي ترجمته القصيرة يقول صاحب الطغفات كان شاعرا مهرا يمدح الرسول
عليه افضل الصلاة والسلام ويمدح شيوخه العركيين. وهما مثال لمهارته في
مدح احد اشياخه

تخلف بعده الخبير المسمى	يدفع الله من اسد شبول
وفي العصر الذي قد حل فيه	جميع العارفين له ذلول
أطاعته العساكر والاكابر	وكم رازوه اقطاب حول
ولا يلد الاسد الا مثيله	ولا يلد البقر الا العحول
ولا يلد الدحل الا لقاها	ولا يلد الدحل الا العسول
وأولاده كلهم صالحون	يبص الوجوه اهل العسول

وقرءة الساجد القليلة التي وصلتنا من شعر الشيخ محمد ود هدي، والفقيه
عبي لشافعي، والشيخ ود عدا الهادي، والسيد ود دوليب ومكي الدقلاشي -
قرءة هذه الساجد كفيلا بان تؤكد لنا ان السودان لم يابيه كثيرا لاساليب التعبير،
التي حلقتها عهد الاتراك في الشرق الاسلامي، واعتمد بدلا من ذلك لهجته
الخاصة متحدا منها لغة أدب وعلم، حتى جاء العهد التركي في السودان،
ووضع حدا لذلك الموقف الالامالي ولكنا نلمح في واحة عهد الفوج بدايات
التلقي لصحيح بالنسبة للغة العربية، وذلك بعد ان اسهمت رحلات الرحالة
الاوربيين في تعريف العالم بالسودان، وبعد ان تيسرت سبل الاتصال بمصر،
وبدأت اطباع ولائها تتجه نحو الجنوب، عندئذ نجد لدى الشعراء عذبة اوفى
بلغتهم واوراسهم واعاربهم ونفهمها واعيا - وان لم يكن كاملا - حقيقة الفرق
بين اللغة الفصحى واللهجات المحلية، فمراهم يتعاملون مع الفصحى كدغة
مست وطقوس ومراسيم، ولا يلحأون اليها الا في مواقف بدتها ومع ان
شعرهم صار فصيحاً واستقام الا انه بقى تقليديا ومهرورا، واعراضه تكاد
تختصر في الرثاء.

وهذه بقصيدة التي أوردها كاتب الشوكة (ص ٨٠) لشاعر مجهول في رثاء
عهد الفوج تكاد تمثل أسى قومه لعوية استطاع ذلك العهد ان يصنعها، قبل ان
يلفظ انقاسه الاخيرة:

ري ندهري اقبلا وادمارا بكل خير يري للمرأة احبارا
يوما يريه من الافراح اكملها يوما يريه من الاحزان اكدارا

وكل شيء اذا ملتم غليته ابصرت نقصانه في الحال اجهارا

هـ على زمن قد كل في طرب
اه عليها وآه من مصيبتها
فلوجست بعد ذلك الانس ولتحت
وصار عمرانها للمحسوس مدرسا
أصحت تعانيتها من بعد بهجتها
ولبليت دولة الاعزاز من همج
كنا بجمع مع الاحباب سمارا
لم نسلها اينما حللنا اقطارا
عينا للامثل ندوانا وحصارا
يصيح يوم نه في الليل صرارا
كلها لم تدق للحير لثارا
كلهم لم يكونوا الدهر اورارا

كانوا كراما بالحمل ومرحمة
كانوا ليونا ولطلا مجرة
فلو رأيت بهم ما حل من ضرر
اثمة الدين بهذا لهم شرف
كانوا ملوكا واشيالا واورارا
كانوا تجارا واشماسا واقمارا
لحريت دمعك اعلانا واسرارا
ففيهمو حكما الرصاص والدارا

وفي اخريات عهد الفونج ايضا يظهر الشاعر الفقيه ابراهيم عبدالدفع ،
الذي يمكن اعتباره مخضرمًا ، لانه عاش الى العهد التركي ، ولكن مصدر ثقافته
الاساسية تنتمي الى عهد الفونج . وقد افتتح حياته في عهد الاتراك بمساواة
السلطة ، حتى انتهى بهم الامر الى عزله ونفيه الى ليبيا طره بمصر . ولولا هذه
النهاية الفاحشة لربما كان له في عهدهم شأن اى شأن . ومع ان الآثار التي تركها
قليلة وحمير قصائد في معطوطة كاتب الشونة وبضع قصائد يرويها نعيم شقين
إلا ان شعره يمثل درجة من الحزالة والتباسك لم يستطع العهد التركي بلوعها ،
حتى نهاية ايامه على ارض السودان . وساء في اشعاره القليلة التي وصلتنا
يتحصر على دولة الفونج ويسخط على العهد الجديد سيما يرثى بعض العلماء
في هذه القصيدة يثب فجأة ليهاجم لطعيان التركي :

اليوم اصبح ركن الدين منهدما

بموت اخواننا في اف والعلماء

واظلمت ارضا حقا وقد خمدت

نار الكتاب وضاع العلم وانهدما

ولمختلف ما كان موجوداً بقريقتنا

من السرور واضحى الآن منفصلاً

ديارنا بعدما كانت معمرة

منهم غدت مسكن الظاعين والظلماء

كنا زمان يجيئنا الركب من بعد

الى العلوم وللقران والحكما

صرنا طعماً بلا ملح يلذ به

تعافه اعين الرائي ومن طعماً

ورحل هذا حاله ، كان لا بد ان يصطدم بالسلطة في عصره ، ويضع السجن نهاية مصالحة لحياته الادبية التي كان يتوقع منها الكثير ، ولكنه حتى وهو في السجن ظل يكتب شعراً صوفياً فيه توسل لله بناسائه واوليائه ، وقد اكتسب شعره هذا سيرورة فريدة ، واصبح حرة من اوراد اهل الذكر في السودان .

ان شعر المقيم ابراهيم عبدالدافع ورصفائه من ادباء اواخر عهد الفونج يمثل قمة لم يتناول اليها الادب في عهد الاتراك ، بل ان هذا العهد الاخير يمثل انتكاسة الى الوراء بالمقارنة مع عهد الفونج ، ادائه ادخل على الادب السوداني تقاليد الادب المملوكي الملىء بالبلاغيات والمحسنات على حين ان الشعر على عهد الفونج كان يحاول الاقتراب دائماً من شعر المتقدمين ، وكلما مضى الزمن كلما قصرت المسافة بينهما كما هو واضح من شعر الايام الاخيرة .
التصوف

والشيء الثاني الذي حملته العلماء الوافدون الى السودان هو التصوف وقد يبدو الامر غير ذي بال ، لان المنطقة العربية بطولها وعرضها حصصت دلت يوم للتأثير الصوفي ، ولكن الامر يتحد شكلاً اشد خطورة بالنسبة للسودان ، فقد دحبه التصوف في ذات الوقت الذي بدأ فيه الدين الاسلامي يكتسح الديانات الوثنية والمسيحية من بين القبائل السودانية . وامترح الاسلام بالصوفية ، بحيث احتلظ الاثنان في اذهان الناس ، واصبحت الصوفية تعنى الاسلام ، واصبح الدحول في الاسلام يعنى اختيار طريقة من الطرق الصوفية . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، كان انتشار الصوفية في السودان اوسع منه في اى مكان اخر

فقد كان الوتر الأفريقي في العقلية السودانية يستجيب للصوفية، بأدكارها، وأبائيدها وحوها المسحور وقد طلت الصوفية تحكيم البلاد وتوجه أقدارها منذ القرن الخامس عشر حتى سنوات مابعد الاستقلال ولم تحطلها بالتقليص إلا في المدن الكبرى وعقب احتملات التوسع التي شهدتها المثقفون وبصر السعة. ومن ناحية ثالثة كان تيار الثقافة الفقهية في السودان من الضعف بحيث لم يستطع الصمود أمام مدع الصوفية (٣) وعيستها وانتشرت بلا مقومه في ميدان مفتوح وأرض مهددة، وبما كان الأمر، فقد افدحت حمسة قرون من التصوف في طبع الفكر السوداني بطامع غير علماني سارنا بعد رواسه في أكثر من محال فهو المسؤول عن قلة احتمال الفكر السوداني بالبحث العلمي، وهو المسؤول عن ظاهرة قصر النفس الكتابي والخطابي لدى أجيال السودانيين، وهو المسؤول عن السداحة العاطفية التي تتحل في صعب لادة المطقية والنيل إلى تقرير الأبيات بالرأى بدلا من الاقتناع به، وبما المسؤول انصاع معظم مظاهر الحياة الأخلاقية كالقناعة والزهد ولعروف عن طيبات العالم لفد خلق التأثير الصوفي لدى الفكر السوداني استعداداً روماسيكياً وعاطفياً لم يتخلص منه حتى اللحظة سوى قليل من المفكرين السودانيين وبالذات الذين تلقوا دراسات غربية المصادر.

وكما هو الحال مع كل مظاهر الثقافة في السودان، لم يتحرك الناس صوب الصوفية وإنما هي التي سعت إليهم، وافدة من مصر والمغرب والحجاز. وفي بلاد كالسودان، حدية تماماً من معاهد العلم والمعرفة، لم يكن بد من تقبل التيار الجديد. ليس لأنه الأفضل أو الأكمل وإنما على أساس أنه الوحيد وحتى عندما عرف الناس أن هالك مباح دينيه غير المبح الصوفي، فإنهم لم يدوروا أي حماس ولا لال مابلهما بعيدة لحد، محفوفة بالخطر وتستلزم هجرة بطولية - مسافة وزماناً - إلى معاهد الأهرار والقيروان وثانياً لأنه تستلزم جهداً أكبر في

(٣) وبك أن الشيخ محمد إسماعيل في حالة الصبر لا يهوى راء في بكاه من انشاء على المقدار شرعى وهو أربع وجع بين يدي الشيخ ما أنيق انصره كلثوم وحادم الله، فأنكر عليه لقاصي دشين حين قدم الشيخ إسماعيل أروحي وحضر صلاة الجمعة بأروحي في أدان الخروج من اجتماع قبض دشين لجام لغوس وفيان خمسب وبمسند ويسعد ما كفاه حتى جمعت بين الآخرين فقال له ماتريد؟ قال لا بد أن مسبح بكاهل لأنك خاطفت كتاب الله وسبه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال لرسول الله وولشيخ إدريس معهم وكان شيخ إدريس خاضعاً فقال لدشين ادرب امره وحل بيته وبين ربه

فقال دشين مذهبى مرد وقد مسبح بكاهه فقال بسبح إسماعيل دشين عسح الله حسب فبقال أنه مرضى مرضاً شديداً حتى انفسخ حله الطفاً من ٩

الدرس والتحصيل، في حين ان بلوغ درجة الولاية في الصوفية لا يحتاج الى كسر من الاحلاص، وتقية النفس، وانتظار الفيص (٤) هذا بجانب - المصحح للصوفي كان حلا ناحف لتناقضات رجل الدين في ذلك العهد، فقد كان الصوفي يجمع في شخصه بين شخصيتي الولي والسلطان. وفي السودان بالذات، تمت على مراحل متعاقبة تجربة ان يعيش رجل الدين حياة دنيوية متكاملة الانعاد دون ان يتعرض للوم او انتقاد، وتفسر تصرفاته بكونها حالة حذب او شطح او غيرها من - آلات الصوفية. وبحرنا كتاب الطبقات ان كثيرا من المتصوفة لسوا الخراب، وبوا على الريش، واكثروا من الروحات والسراري، ولم يتعرضوا مع ذلك للوم او نثيب وعلى العكس من ذلك كان هذا السلوك مفهوم ومبررا لدى العامة والخواص.

وعلى كل فان ما تلقاه السودان من مبادئ التصوف، لم يكن اكثر من قشور وتسميات، فرغم انتشار الصوفية الواسع، لم يظهر طوال عهد الفونج صوفي واحد يتفهم روح التصوف الاصيله وقرأ كتبه الاساسية. ويعمل وفق فلسفته - لقد عجزوا عن تفهم اهم ركيز من اركان التصوف الاسلامي، وهم الحسب الالهي ووحدة الوجود (٥) واستعاضوا عنها بمظاهر تقليدية وسطحية للمحب السوي تلخص في المديح الذي يتراوح بين المحبة والتشويق وبين التمجيد المتزلف لا اكثر، مصيما لشخص الرسول المعجرات التقيدية الموسومة بطابع المبالغة والتهويل.

ان السمة الاساسية لعصر الفونج هي سمة الاكتفاء التي تلقى القشور الثقافية لكنه يطل عصرا اصيلا ومدعما من حيث انه قام بملء الفراغات وسد الثغرات واضاف من عنده ان اللغة العربية والممارسات الاسلامية بحيث بدأ في الظهور وجه متميز للقسيمات لسودان القريين السادس والسابع عشر وبعبكسه يبدو العصر التركي الذي تلاه عصرا مقلدا وغير اصيل فقد كان مثقفوه يرون في ثقافة العهد التركي عاية الكمال ونهاية الابداع وقصروا طاقاتهم في ترسم اثارها في كل مظاهر الحياة الثقافية

(٤) مثلا كان ابو القاسم الجيد بن علي النيل اميا لم يقرأ وكذلك عروضة شكان اميرج ومحمد الهميم بن عبد الصادق مكن اميا لم يقرأ الا من الناس الى الدلالة وحس حسنة وحسونة كان متبها في معرفته بالعران (الطفاة، ص ٥٠) وهؤلاء الامم او المشكوك في علمهم كانوا اكبر اولياء الله في زمانهم ولا زال لهم اتباع ومريدون

(٥) يشد عن هذه القاعدة صوفي واحد هو السيد الشيخ احمد لطيب بن بشير مؤلف كتاب الحكم المسمى بالجواهر لغيريد في علم الوحدة والوحد والكذب يعرض في معظم مصوله بصرية وحدة الوجود ولكن بطريقة غلب عليها الاستشهاد ولاقتباس بحيث يبدو شبه بالمحترات

العهد التركي

بدأ الغزو التركي عام ١٨٢١م، وتداعى امامه سرعة فائقة كمية الدويلات التي كانت تعمّر الاراضي السودانية بها فيها بمدكها الفونج التي كانت قد شاخت وتسوست واستهدفت طاقاتها في مزارعات عديمة المعنى . ومع ان الغزو التركي انتصر بسرعة الا انه تعرض لمقاومة ناسلة من القبائل السودانية التي كت نواحه بالسيف والرمح ، سلاحا لم يسبق لها محرد السماع به ، تقوم باعدادها القدية الصغيرة ، جيشا مطيا (ومقاييس عصره) حديثا . استمر الحكم التركي ستين عاما ، لم تفلح في اقناع الشعب بانه مهروم ، وان سيادته تسلطون على اقداره ومصائره ، فقد ظل على الدوام ساخط ومتحفظا ومتعاليا على حكمه المستبد . وظلت الجماهير تدرس نشاطها الثقافي الموروث دون ان تتأثر كثيرا بالغزو ، ففى الشعر الشعبى السودانى صميا ، وطر القصاص الشعبى متحررا من التأثير ، وظلت الصوفية تمارس لدى اتباعها بنفس الاشكال القديمة .

ومع فشل الثقافة التركية في التخلل في اوساط الشعب الا انها اكتسبت ارضها الخصبة في القطاع المثقف ، ادسرعان ما التفت حولها صعوة من المتنورين اصحوا حملتها والناطقين باسمها والمتكفيلين منها بين الناس . وبحركة من القمة تم تعبير في الولاء الثقافى ، فسدت تقاليد العهد الموريجى ، لتحل محلها تقاليد جديدة تركية الاساس ، ولكنها سودانية الصبغة . وشجبت بضرمة واحدة اساليب التلمذ القديمة لتخلفها الاساليب الجديدة (الوافدة) ، فصحت مصادر العلم تتدرج من حلقات العلم التي يعقدها العلماء في منازلهم ، الى المدارس التي فتحت (ثم اغلقت) ، الى الازهر الشريف . وعمر هذه السلسلة المتفرعة ، استطاع قدر محدود من العلم والثقافة ان يحدد طريقه الى السودان . فقد اصبح السفر الى الازهر سهلا وميسورا . واصبح التعليم نفسه مورد رزق للمتعلمين . وصار للطلاب السودانيين اروقة في الازهر تجرى هم الحرايات ، وتلطف عليهم حياة الاعتراب ، وتسهل لهم سبل المعرفة . وعن طريق هذه الفائدة الجديدة ، استطاع السودان لأول مرة ، ان يقيم جسرا ثقافيا بينه وبين

● تصابق هذه التسمية بعض الكتب المصرية خاصة اولئك الذين يعتبرون عهد محمد على باشا معجزة قومية لمصر وحدها اصيلا وراها من تاريخها الحديث . ولكن الجمهور والكتاب في السودان تواصلوا عن تسمية عهده في السودان بالعهد التركي بدلا من :مصرى تأكد لغريته عن مصر بوصفه حاكما حبيب وابقاء على صلاته الود مع مصر حتى لا تتسبب بها بوجهه بضمه في السودان

مابع الثقافة الاسلامية، فكثير العلماء، وتوفرت الكتب وعندما بدأت الصحافة في العالم العربي تردد صداها في اوساط السودان العلمية ولم يتأخر الادباء العلماء السودانيون عن مراسلتها والكتابة اليها

ان شئنا هذا الاتصال الثقافي، تكفل بفتح عيون السودانيين على حقيقته وموقعهم من الثقافة العربية خلال الثلاثة قرون السابقة، ففتح عن ذلك ان ترعرع اليقين القديم الذي كان يستقيم اليه المثقف السوداني . . وبدأ يدرك الشقة قد بعدت بينه وبين الاصول العربية فاكشف ان الدعة التي كان يكتبها اسلافه في عهد الفويج لم تكن سوى صورة شائنة ومحرقة للعربية المصيحة، وان التصوف الذي كانوا يتساهلون به، ويدعون فيه اعلى الدرجات، لم يكن سوى مظهر احواف ومنحول، وان المعرفة الواسعة بالفقه والشريعة، لم تكن اكثر من ادعاء مفصوح . . وعن هذا الوعي الجديد بالتخلف الثقافي نتج لدى احيال السودانيين نوع من الحساسية المتجهة تجاه كل ماهو عربي واسلامي - نوع من الحساسية التي تحس صاحبها في قفص اتهام وتلومه بالمبادرة الى اتخاذ موقف الدفاع، اما بالمباهاة الفارعة واما المحاولة التقعر . . وبالفعل بدأ مثقفو الفترة يعملون بجهد فائق لودم الهوة الواسعة التي تفصلهم عن العالم العربي، فظهر شعراء وناثرون يكتبون بالعربية المصحى، ويرز متصوفة يعرفون الغرالى وان عربي والحلاح، وظهر فقهاء ازهريون برعوا في مسائل العقيدة والشرع .

على مستوى التصوف كان شيوخ الصوفية السودانيون يدعون لانصهم اعلى مراتب الغوثية والكونية والقطبية، ويجارون بحماس فائق مؤلفات كبار المتصوفة في العالم الاسلامي فوجد السيد محمد عثمان الميرغني والشيخ اسماعيل الولى يضعان - بالتعاقب - (الاسرار الربانية في مولد اشرف الخلائق الانسانية) و (الواردات الملتزمة من الحضرة المقدسة) على غرار مولد البرزنجي . ووجد شعراء الاماديج النوبة يصنعون دواوين (البور البراق في مدح النبي المصداق)، (ورياض المديح) (وروض الصفا في مدح المصطفى)، (والخواهر الركبة في مدح خير البرية) بمجازاة للبرعي، كما نجد عشرات من دواوين الشطحات والعزل الصوفي على نهج البلسي واسب الماراض . ومع ان كل هذه الاعمال محشودة بالتأثرات ولا تخرج عن كونها تقليدا ومجازاة لمؤلفات قديمة، الا انها تصدر في جو من التباهي والادعاء والتعالي النابع من احساس ذهين بالانتماء . ويتأكد لدينا هذا الاحساس اكثر فاكثر حين نقرأ دواوين الشطحات بالدات، فمبها ملتقى سوع من الشعر هو في الحقيقة قصائد مفر متوالية تتركز في الزهو بما للكاتب من مكانة عند الله ورسوله وما يحظى به من تقديم واكبار في الحضرة

الالهية وتفوق على رصفاته من الاولياء والمحيين . . (٦).

وعلى كل حال هذا الجولم يكن معبرا بالنسبة للجماهير المريدين والاتباع، بل كان ادعى الى التفاهم حول شيوخهم، واعتزازهم بعلمو مكانتهم وكرامتهم، واقبيادهم اليهم انقيادا لا يعرف التحرز ولا خطوط الرجعة . وبفصل هذا التلاحم الوثيق بينهم وبين الجماهير، استطاع المتصوفة المحليون ان يحدوا من نوع الطرائق الصوفية الجديدة، التي مهد لها الاتراك، وشابعوها، وحاولوا بثها بين الناس . وكان الى جانب هذا عامل مساعد، هو واقعة ان الشعب ظل منذ البداية، في حالة استحقاف ورفض للاستعمار التركي بمختلف مظاهره .

بما في ذلك المطهر الثقافي . وربما كان عروق الجماهير عن الطرق الصوفية الوافدة، تعبيرا غير مباشر عن رفضها السياسي للحكم الوافدين، ونقمتها على النظام القائم . ولكن - كما كان الامر، فانه لا يسعنا الا ان نؤكد، ان هزيمة الصوفية الوافدة لم تأت على ايدي الاولياء المحليين لان هؤلاء كانوا يكرهوا وافروا اصالة، وابيا لاهم كانوا بارعين في الصنعة والتقليد والقل عن نفس المتصوفة المرفوضين بحيث افلحوا في استدال صوفية عهود الانحطاط نسخة سودانية وطبق الاصل من صوفية عهود الانحطاط

آل الامر لا يعزى الى اصالة في التفكير، بقدر ما يعزى الى مهارة في التقليد، فالصوفية السودانية عجزت تماما عن اضافة اى جديد الى التصوف الاسلامي في المجال النظري (وان كانت قد افلحت في مجال الممارسات العلمية) وظلت طوال العهد التركي سحرة مكررة للتصوف خارج السودان كما ظلت بدع العهد التركي مثالا عموما . احتداه السودانيون منذ ١٨٢١ الى سنوات كثيرة لاحقة .

اما في مجال اللغة، فقد وعى المثقفون السودانيون احيرا، حقيقة العرق بين اللغة الفصيحة واللهجة المحلية، فعرفوا ان العصر لم يعد يسمح بأسعرب اللهجة الدارجة في مؤلفات المكاتب والاعمال . وبالعصر يعتبر مجرد الامام باصول اللغة وقواعدها نوعا من العلم والثقافة، وانتصارا يغنى عن الكثير، فضلا عن ان انتفاء اللهجة السودانية الدارجة بالادن المصرية، والادن التركية المتمصرة أثبت ان تلك اللهجة ليست ذاتيا مفهومة، وبالتالي لا تصلح لمخاطبة

(٦) يقول الشيخ اسماعيل الجولي

باسم الله العرشى جمعا

اسم الحصريين بلا احتلال

وهكذا تأخذ بقوة النضال والاقتدار ما احده ابن الفارض باصطلاح عصره وتوصع الناس حين اطلقوا عليه لقب سلطان العاشقين

الأذن الاحسية التي كانت مصمتة نامعد ودرسخانة لهذه التحدث، وحد
 مثقفو ابقرة انفسهم دحل ساد لاهث وسريع عى الالام باصول اللغة
 لاثبات تعوقهم فى ذلك نحال وكشيحة اولى هذا السبق كتسب اسودان
 عقلية لاحنى عى اللغة (Mentality of the Lingual
 Foreigner) فأصبح بحس بعربته نجه اللغة ويضع نفسه عى الدوام فى موقف
 المتعلم وليس موقف المبدع وككل احنى اللسان وصع حدا لحرية فى
 الابتكار والتعديل وشرع فى التعامل مع القاموس، وقد تبع ذلك ان توقفت
 المجهودات الباكرة التى استهدفت تطويع اللغة، وحلت محلها ظاهرة
 التعامل المباشر مع القاموس.

ن هذه لظاهرة هى مسؤونه عن ذلك الفاء الذى تمتحربه طحتنا لمحية
 المسنة بالتسميات القاموسية لمطهر البيئه والحياه، وهى نفس الوقت مسؤونه
 عن فقر تلك اللهجة فى مصطلحات والامثال وكلشيهات التعبير ادا ما قورست
 باللهجات العربية لآحرى التى لم نعلها من النمو الخوف من الخطأ او اللحن
 الدائم لى القاموس لقد تعاملت الشعوب العربية لآحرى مع اللغة،
 بحرية وافلحت فى نحب بلاعه حديده ومفردات حديده، من جسم اللغة
 الحى اما فى السودان فقد تدحلت تلك الجسم المتهمه لتعوق نمو لغة
 المحليه، وتمنع عقريه الشعب وصافات انداعه من الانطلاق، وجعنته فى حالة
 عسودية دائمة للقاموس ليس هذا فحسب، بل ان الاوراد والادكار
 الصوفيه، عى ذل المتصوفة يلقونها للشعب، اسهمت بدورها الكبير فى ربط
 الشعب باللغة الفصيحه، بمفرداتها وبعايرها وفى العهد ثنائيه، يبدو
 اثر هذا لوضع بصورة مبالغ فيها لدى بعض المثقفين السودانيين، الذين راحو
 يلهثون وراء اللغة لاثبات معرفتهم بها، بحيث دحلوا فى معادلات ونسب
 وعن قصد وتعمد لحأوا الى الاعراب والتعرب، ووضعت مؤلفات عن اللهجة
 السودانية تعرض منها اثبات عروية اللسان السودانى وصفاؤه، وكانت النتيجة
 النهائيه هذا الوضع، ان صار الكاتب السودانى صيدا سهلا لسحر اللغة،
 بحيث يكو ويصيق نفسه، بعد مشوار قصير عى الورق، مع الميل الشديد الى
 الطبقة، البلاعية وهو يتناول اكثر الامور صرامة وحد

وربما هذ اخوع مدهوش لاثبات عروية اللسان السودانى، رد فعل
 اقوى من اللازم لتحديات طقيمة وعارضة، ولكن طبيعة الاستعمار التركى كميعة

بتفسير تلك الاستحانة القوية، فقد كان حكم الاتراك، انكارا صريحا لعروية السودان واسلامه. وكان السوداني ينظرهم عبدا رقيقا، ووحشا متبريرا، وليس عربيا حال من الاحوال، فضلا عن ان العربي نفسه لم يكن في نظرهم شيئا دال وحتي عندما يتعلم السوداني ويتقف، ويقف بدا لاسرع المتعلمين والمتشاعرين في عصره (٧)، فانه لا يثير لديهم الاعجاب او الاحترام، بقدر ما يثير الدهشة والاستكثار - انظر الى هذه الدهشة غير المهذبة والتبرير السخيف الذي تقدمه صحيفة (الوقائع المصرية) امام قصيدة للشيخ الامير الضير - ولعمري ان كل دى لب يستكثر من اولئك - اى السودانين - ذلك . . ونشره للوقوف على حقيقة الدرجة التى هنالك . والتشويق الى الزيادة . من الافادة والاستفادة . ولقد تردد علينا اناس منهم مشغولون بالعلم بالازهر المعمور، هم في غاية التهذيب والسجابة والاستقامة في كل الامور . . تحسبهم - لولا انهم كنهم حيلان - من حطط الامصار لا السودان . . وبالجملة فالواجب نشر مآثرهم بلفت مألفت - شكرا على تاسى بربرتهم التى لفت . . في هذه الاوقات الحالية، بالهمة الحديوية العالية.

وامام عين نافذة ومستكثرة كهذه، يبدو سلوك السودانيين مبررا ومعقولا، بصفته رفضا للاستهانة والامتخاف اللذين قولوا بها من جانب السلطة فضلا عن ان هذا الموقف كان نوعا من الحماية للسودانيين من الاسترقاق الذى كان على رأس دواعي الغزو التركي، ولم يكن للسوداني من عاصم منه سوى اثبات عرويته واسلامه، وعلى كل فان هذا الوضع المعقد، لم ينتج الا فكرا معقدا، وعقدا فكرية فاصبح مجرد الكتابة باللغة المصيحة انجارا له وبداية، واصح تعلمها يرتفع بالمرء الى عداد الصعوبة المثقفة، ويضعه في عداد المتعلمين، فشا عن ذلك ان انصرف السودانيون عن الكتابة الجادة المصولة، مكتفين بالنذر اليسير الذى يشت لهم هذا الانجاز . . واتخذ ذلك النذر اليسير

(٧) اطلع بعض متقضى العصر في بلوغ هذا المستوى، فالشيخ الامير انصيرير كوفي عن قصيدته المشار اليها هنا من لدن الحديوى اسماعيل بتعبيره رئيسا ومهيرا بلفظاء سودى والشخ يحيى السلاوى كتب بتكليف من احمد عربى قصيده عن الثورة العرابية وصعب بناء ادهب وسعت في شوارع القاهرة، كل نسخة بجيبه ذهبا) والشيخ عمر الارهدى فار بحائرة الجوائف مصرية عن قصيدته

ملوا عن قواى مصيلات الدوايب

فقد صاع من نبي القلوب الدوايب

«مقتات البراع للمرحوم المؤرخ محمد عبد الرحمن ص ٨٦، ٨٣، ٨٨»

طامعا شعري خاصة وان العهد التركي كان يحتفل احتفالا شديدا بالزركشة
والمصاحفة في الشعر، فاصبح الشعر مجالاً طامعا للمبسطة والبكات البلاغية . .
والاثار الشعرية التي خلفها العهد التركي في السودان تحمل ميسم عصره
تتلذذ مطاوع فتكتظ بالاستعارات .

الود مأدبة والصدق احوال الصادقون لدى الاداب احوال

والجناسات

اشعارهم ذلت اشعار بحالهم
فهى الشعار خطوا بالوصل لو بانوا

والتضمين

حتى بقول على عكس الذى رعموا
من ساعه زمن سرته ازمان
هذا وجودهما مستعبد بشرا
اذ طالما استعبد الانسان احسان

وتنتهى دائما بالتاريخ على حساب الحروف الابجدية

لذاك حس ختام القول ارحه صون المواظ توفيق وعرف

١٤٦ ١٣٧ ٥٩٦ ٤٠٧
سنة ١٢٨٦هـ

وهذه الصورة لا يصح العهد التركي بين ايدينا، الا شعرا تقليدياً باهت
محصور الاغراض، بحيث يتساءل المرء ما اذا كان الشعراء في ذلك العهد
يمكنون قلوباً ويحسون عواطفاً . . فالتكلف في اشعارهم طاهر، والتقليد
مفضوح ولعل التكلف النابع من التقليد، لم يبلغ باحد الدس مايدعه لدى
صاحب هذه القصيدة، الذى يروى كاتب الشونة انه احد الاخوان 'لاحباب'.
وانه زاره فلم يجده، فتحررت قريحته وبعث هذه الابيات :

سلام على الحل المهدب رأيه
فما سرنى لا والذى فطر السما
صربت حيلى فى سويدلى حيمة
وهذا مراد الله قد حال بيحا
ولست ملوما فى اشتكلى هدركم
شد المسك والكافور يدريك حا
سلنك احمدا سحيا قنيلكم بوصل
هرؤياكم بالخير يشعى لعنلى

كريم السجاليا مستنير السرائر
عيلبك عن تلك الديار العوامر
وبت مقيما فى حدود نواصرى
فما حيلتى فى دفع مفذور فادر
وان كان وجه الحب بين النواظر
لهم يشم لداك النعد لا للحواصر
عسى ان تطف نار الصمائر
ويطرد من عيى الدموع الفواصر

فقد ذهب الرجل فى تقليد شعر الغزل حتى قال ما لا يقال فى مجال التراسل بين الرجال وما كان اعناه عن البكاء والعويل وتشكى الهجر والغرام والمسألة بعد لم تخرج عن زيارة لصديق غائب.

ومهما يكن فان ماحلعه العهد التركى ليس شعرا تلخصت فيه عبقرية الامة وتضاهرت على انتاجه جهود الصفوة من مثقفيها، لانه شعر فئة واحدة من فئات الشعب هى فئة العلماء. وخلف هذا الوصح الشاد، توجد ظاهرة انعدام اى نوع من التعليم سوى التعليم الدينى الذى يجعل من المرء عالما ورجل دين، ويربطه بابواع من التقاليد، لا ترى فى شعر العاطفة نشاطا خليقا بمقام العالم، ومكانة رجل الدين ولا يقتصر اثر هذا الوصح على هذه الناحية، وانما يبرز فيها بعد فى صورة اخرى هى تلك المكاسة الرقيقة التى يوليها السودا لشعر والشعراء دون بقية الصون الادبية، ودون بقية المشتغلين بالادب، فقد ارتبط الشعر بالطبقات القائمة فى المجتمع وصار هواية الاكابر والممتازين الامر الذى يفسر لنا كثرة الشعراء طوال عهود تاريخه المختلفة، وغلبة الشعر على بقية الفنون الادبية.

ولا يقتصر اتجاه التقليد على الشعر، وانما ينعكس على كل كتابات العهد التركى فنلتقى فيها نثر التقليد والانتقاد الى بدع عصور الانحطاط، والتعامل معها كقمة ومثل اعلى ففي الاثار الثرية، نلتقى بالوان متفاوتة من السجع والمحسسات اللغوية وفي مؤلفات المتصوفة نلتقى بمصطلحات العهد الدينية، وحرافات واساطيره المسبوبة الى النبى كمعجزات، وادا كان للمصوفية من فضل او ميزة، فان ميزتها الكبرى هى احتماؤها بحريتها امام اللغة، بعكس الفقهاء الذين استسلموا بالقياد تام للاصول القاموسية، فقد استطاع الصوفى ان

يحطىء ويستكر وتسلق حائط اللعة ويتكىء على صيغ وتعايير دارجة دون خوف
ربما لأن وضعه كمتلق للعلم «اللدى» يحوره من الخوف ويعصمه من ترقب
الانتقاد

جملة لقول ان العهد التركى ، كان عهدا مقلدا وغير اصيل ، ولكنه يطل
واحدا من اهم عهود التاريخ السودانى ، فقد افتتح به الاتصال المباشر بين
السودان ومناخ الثقافة العربية ، وعاد السودان يواكب المنطقة العربية ، ويتأثر
بما يجرى فيها بعد ان قوت عليه قرون العزلة فرص التأثر والتلقى الصحيح .
ومنذ هذا التاريخ يبدأ السودان اتصاله الوثيق بالعالم العربى فيشاركه انتصاراته
ومحبه واراماته ويتعرض معه للغزو التركى والغزو الفرنسى والاحتلال الانجليزى
ويشارك فى الكفاح ضد الاستعمار ، ويال استقلاله فى تاريخ مقارب لاستقلال
البلاد العربية ، ويعيش معها ازمات فلسطين والحرائر والعدوان الثلاثى وثورة
اليمن والعدوان الاسرائيلى الاحير ، ولكن هذا الاتصال الوثيق يتخذ منذ وقت
مكبر صورة غريبة - وان كانت متوقعة - هى صورة التطلع الى مصر ، ومصر
بالذات دون بقية الاقطار العربية

ان هذه الصلة لها اثرها الحاسم على الفكر السودانى خلال وبعد العهد
التركى والى عصرنا الحاضر ، فمنذ ذلك التاريخ تلعب مصر دورا اساسيا فى
توجيه الفكر السودانى والهامه ، واحيانا اخرى فى خنقه وتذبذب طاقات الابداع
فيه . وقد فعل الحوار وتشابه البيئة فعلة الحاسم فصارت بعض قصايد لسودان
تحسم بطريقة غير مباشرة عن طريق الخترات والمناقشات المصرية ، بحيث نجد
الحل جاهرا متى ما نشأت مشكلة او استحكمت ونجح عن ذلك ان تابع
السودان مصر فى التأثير بمختلف المدارس الفكرية وتابعها فى حبراتها الكهاجية
وتاريخها السياسى العام ، بحيث تهبأت لدى احيال السودانيين نفسية متلقية
وغير رائدة تصوب انظارها دائما الى ادق دفايق الشؤون المصرية تتعصم وحب
واثناء تعرضنا للعهد اللاحقة سيتضح لنا الاثر الباعع والصار لهذا الوضع
الفريد وسوف يرى اى مكان تحتله مصر فى فكرنا وتاريخنا .

المهديه

انتهى العهد التركى نهاية عبيقة على ابدى . «المهديين» «الدين دوجو»
الجيش المريكى - الانجليزى القيادة - فى مواقع امتدت عبر ربع سمر ،

وانتهت سقوط الخرطوم ومقتل عردون وارتداد حملة الانقاد. وعلى ناص
التركية، بدأ في السودان عهد من الحكم النوطى هو بحق بداية لتاريخ
السودانى الحديث. فمع ذلك العهد تبدأ في الشوء معظم طواهر الحياة الثقافية
والاجتماعية والسياسية التى تعطى لسودان اليوم مسماته المميزة فوق خريطة
الكرة ومع ذلك العهد ايضا، بدأ في التلور حصيلة شعب من حرات
عمرته عام حرات البلاد حلالها حكم القبيلة، وحكم الدولة، والحكم
لاحقى والتقت بتيارات الحصار النابعة من البلاد والوافدة عليها من المغرب
الافصى، والشرق الاوسط، واسيا الصغرى. واهم من ذلك، يفتح العهد
المهدوى، طريق الوعى القومى فيدخل على الجماهير السودانية، شعورا عاما
بالانتماء الى اصل واحد، وبالوقوف في صف واحد، والوجه الى مصير واحد.

جاء الحكم للمهدوى على انقاض التركية فكان ضروريا ان يهدم ويقوص،
قل ان يدع ويشيد وكان ضروريا لسو الثقافة المهدوية ان يتم بحرص فائق
قتلاع جميع الحدود التركية من ارض الثقافة السودانية، وان يتم لقصاء على
الدعة واستحريف واخرقة، قل ان يبدأ التوجه الثقافى الجديد وقد بدل الثوار
اقصى الجهد لتطهير الجو الثقافى من الاثر التركى، واهروا بحاحا سريعا
وكاسحا في معظم الاحوال، ولكن الامر مع ذلك لم يكن سهلا ولا بسيرا فقد
تمكنت الثقافة التركية في السودان خلال ستين عاما من السلطة، واستطاعت
ان تفرص لنفسها ديوعا ورواحا وان تفرح انصارا وحمية ومحير. ومن اساحية
الاحرى كان الثوار يجاهسون هذه الحصار الدائعة، ناداة ثقافية ضعيفة ونقصية،
فقد كان انصار الثورة في الغالب من الناس السطاء الذين لم يبلوا خطأ يذكر
من التعليم وكنت ايديهم خلوا من الثقافة التى تصلح بديلا سريعا للثقافة
المهرومة وكان انفقون يتحدون موقفا مستحديا من الثورة، فمهم من صلح
مع الاتراك، ووضع الرسائل في تكديس المهدى ومهم من نقى على نوع مريب
من الحيد، حتى سقطت الخرطوم. فتحول سرعة عريبة الى الصف المهدوى
(٨) وبالرغم من هذا الوضع غير المتكافى فقد قدم الثوار كل ما بامكانهم لدحر
الثقافة الدخيلة، وقد استطاعوا ان يقدموا اسحات جلية في ذلك المحال،
فقل الاعلان الاول للثورة على السلطة التركية، كان المهدى قد اعلن الثورة
على حصارتهم ومنذ الوهلة الاولى شرع في الغاء تلك الحصار واستبدالها

(٨) ومع ذلك فقد وقف مع الثورة - وبعد اعلانها الاول - صفوة من مثقفى العهد، كالشيخ محمد
الحير، والشيخ اميدون بدر والاستاذ المصوى عبدالرحمن واحمد المكاشفى وغيرهم كثير

بأشياء من انتكراه الخاص او من الاصول الاسلامية العرفية
 اما الاسلوب الاول اسلوب الاسكار والتحديد، فقد اتخذ صورة محاولة
 شجاعة لانداع حصاره سودانية محلف الحصار الاحسة المدحورة، وتسند
 الفراع الذي حلفته ومن هنا غنمى الانام الاولى للمهدية بالانتكـ ب
 والاستحداثات على كل نطاق، بحيث يصح الرعم بان عصرة الشعب
 تفحرت تلك الايام بصورة لانظر لها في اى من عصور تاريخ السودانى
 اللاحقة وكان المهدي اسب القادة، واكفاهم، لقيادة الشعب في عصر من
 التعبير السريع، ومن الصعوبة في مجال صيغ كهذا، ان يحصر كل ما انتكـه
 الشعب على عهد الشائر الملهم ولكن لعل هذه السادح تكفى لتدليل
 (أ) كتب مهدي في احد مباشره داعيا الى سد الملاس وبشارت انتكـية «ومن
 لفس اعدائه - اى اعداء الله - الطريقته والسورى وكل الذى يكون من علاماتهم
 وبساتيم فاتركوه» الجزء الاول صفحة ٤٨ وعوضا عن ذلك لاريد المحرمه
 انتكـ القند الرى الوطنى المهدوى والذى يتكون من المرقعة المعددة الابو
 «اتركوا التفاهت وفرأوى الريف لان موت الفوس حياتها وبسوا الحب
 المرقعات»

(ب) وكتب داعي الى سد الالقاب التركية «فلا تطلوا العرة بالثسمى بالشـ
 والسيد فديكم تسمعون ان جميع الاسياء والمرسلين وبصحابة والتابعين لم يسم
 احدهم بالشـ نعضا فلا ترعوا فيما تسمى به الطالمون والترك المعروضون فهم
 لا يرضون الا ان يسموهم الوطنائف فلا تسموا بذلك» جزء اول صفحة ٥٥
 بدلا من تلك الالقاب جاء العهد المهدوى بلقب انصارى للمواظ العادى
 ورأس مية وأمير وجهدى للرنب العسكرية

(ج) وكتب ايضا في مشور وجهه الى كتانه وولاته على الاقاليم «الحمد لله الوالى
 الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى اله مع التسليم وبعد فمن عذره محمد
 مهدي بن عبد الله اعلاما منه لجميع كتاب وحكام المهدية وانصار الدين اما
 بعد فالذى بعلمكم به ان الله سبحانه وتعالى قال في كتانه العرير «واحسوا ان
 الله يحب المحسنين» فحيث فهمتهم فلا بد من تحسين الخط وتحويجه وعدم
 تغيير الحروف وقلب معانيها فقد اهلك الله المعيرين فاتركوا خطهم ولا
 تسلكوا سبيلهم واظهروا السين من اسم الله الرحمن الرحيم والشين من الشيطان
 الرحيم واعطوا الحروف حقها كما ابرلت وحسب ما عهد فيها سلف وتعليق
 الكاف والهاء على هذه الهيئة واباكم وكتانه الترك» .

ومباشرة المهدي التي مازالت موجودة في صورها الاصلية، ومكاثبات الخليقة ووثائقه، كلها تفصح عن حقيقة كبيرة هي ان العهد المهدي اطلع في خلق من CALLIGRAPHY خاص به، ومن المستحيل الفصل بين هذه الحقيقة وبين العناية والتفوق المدع الذي يديه الصانون السودانيون المعصرون في مجال الخط العربي (٩).

ولم تقف دعوة المهدي الى حصار جديدة عند هذا الحد، بل تحورته الى عشرات من شؤون الحياة فحدثت فيها ثورة وتغيرا وكان الثائر الاول مهتم غاية الاهتمام، وجادا عاية الحد في محاولته انداع حصار سودانية اصيلة، متحررة من التقليد ومن التأثير التركي ومع ان موت المهدي المبكر قد اسهم في اضعاف هذه الحركة قبل ان تؤتي اكلها، الا انها بقيت في مكان ما من العقل السوداني، واليها يمكن ان نعزى حركة القومية السودانية على ايدي جيل اليقظة وجيل الوعي فيما بعد.

اما الاسلوب الثاني اسلوب العودة الى الاصول الاسلامية الاصيلية، فقد تحد صورة متشددة من صور الرفص لكل ماهو دجيل وعرف ومبتدع، مستعصا عن ذلك بالاصول، ومبشرا بسوع من العودة الى المصادر الاسلامية شبيه بدعوة الوهابية في الحجاز روى عن عبدالصمد حاح شرفي قوله «الحاج مرروق رجل شيقى عالم، كان قابل المهدي في قدير وسأله مرة قائلا: معلوم ان المذاهب هي اربعة الخفي والشافعي، والمالكي، والحلي، فما هو مذهب المهدي؟ فقال له. هؤلاء الائمة حراهم الله قد درخوا الناس واوصنوهم الينا كمثل الراوية وصلت الماء من مهبل حتى وصلت صاحبها للسحر فجزاهم الله حبرا فهم رحل وحن رحال ولو اذركوا لاتعوموا وان مذهبنا هو الكتاب والسنة ونؤكل على الله وقد طرحا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ»

ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل بدأ المهدي سعيه الحريء نحو توحيد المذاهب الاربعة في مذهب واحد باختيار الاصلح من كل منها، معتمدا في ذلك على الكتاب والسنة ومتحررا من اي عصر من عصر التصاؤل والاستجداء التي تثيرها الاسماء الكبيرة، والتقاليد العريقة، عملا بقوله «هم رحال وحن رحال» وبهذه النظرة الواثقة يفتح العهد المهدي صفحة باسعة في تاريخ التلقى المباشر عن الاصول، فادا كان عهد الصويح قد اكنفى بالفسور

(٩) وبالداب محاولة استخلاص الامكاثات التعبيرية في الحرف المصطوط كما قام بها الاستاذ الصلحي وشبريين

يا ظالما صدنا بها صيد الغصنغر للثعالب
 جيشا يرس سلاحه كالمرز اذا ما المرز صائب
 وسواكى تدرى بنا لنا لدى الهيجا نصارب
 بالمشرعى كئنه وقع الصواعق فى المصارب
 زمنا رصدنا نحوها نعدى العجائب والغرائب
 وبئر فى ارجلها كلاليث اد نشب المحالب
 ولصالما بررت لنا منها العسكر والكتائب
 من كل هج يمنة بل يسرة من كل جانب
 فتحاذتهم حيلنا ترمى بهم رمى الثواقب
 البيص تلعب فيهمو فوق العمام والعصائب
 حتى انت اخبرنا من مصر تكتبها الجوائب

(عن نفقات اليراع ص ٩٣)

ولكن الانتصر الحقيقى الذى احرره المهديون فى هذا الميدان يتمثل فى
 شخص الشاعر عمر البنا، الذى استطاع ان يتمثل المرحلة بطريقته السدحة
 ويتفنن بها فى ديوان كامل ينص من اوله الى اخره بدفق حماسى ومهدر وسلس .
 ووكالمادة نستشهد بقصيدته الشهيرة

الحرب صبر واللقاء ثبلت والموت فى شئ الاله حياة
 والحب عار والشجاعة هيبه للمرء ما افتربت بها العرمان
 والصبر عند الناس مكرمة ومقدم الرجل تخلعه الوقعات

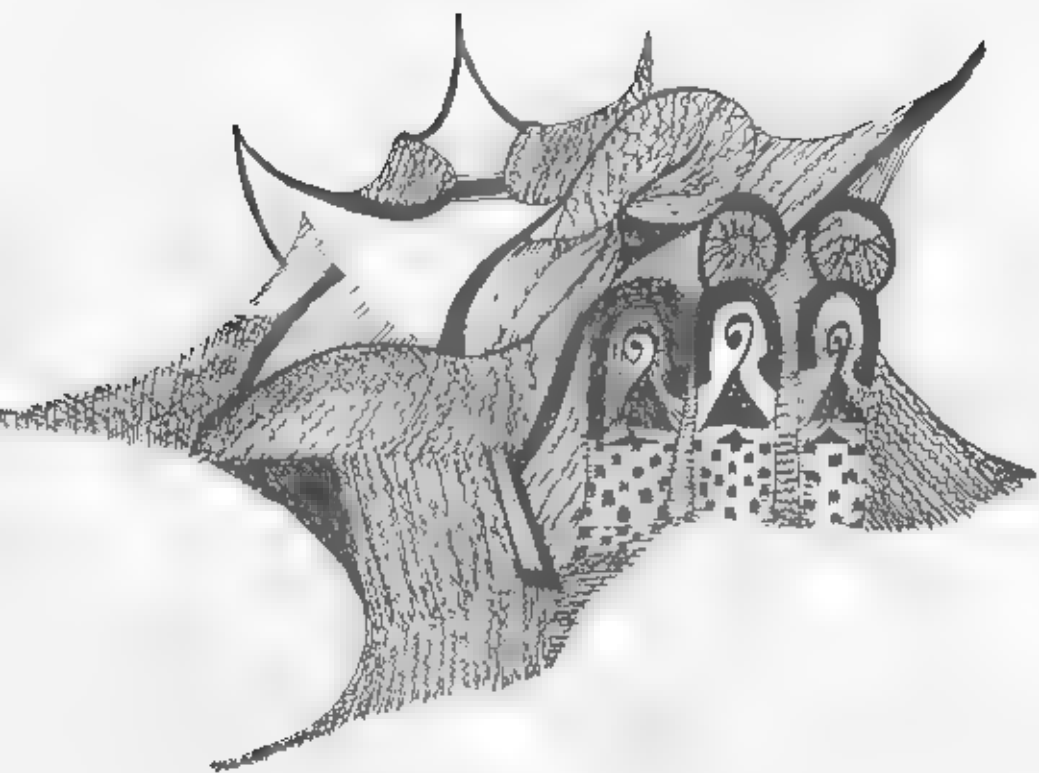
قد حاز هذا الافتخار جميعه صاحب الامام السادة القادات
 قوم اذا حمى الوطيس رايتهم شم الجبال وللصيف حملة
 ولباسهم ررد الحديد ولباسهم شهدت به يوم القا الغروات

يا أيها الانصار ان صنيعكم شكر الاله له وتلك هبات
 اعليتم دين الاله ومليك لا الثبات تربيه الوثبات
 وشرحتمو صدر الرسول محمد بالفتح فلنكشف به ظلمات
 وسقيتم لاعداء كفى مية عدراتها ما مثلها عبرات
 فلفخر فخركم وفخر سواكموا محص لاعداء ماله اثبات

فهذا الشعر - بالمقارنة مع اشعار العهد التركي - يبدو فريدا في طواعيته وسهولته واقتراحه من مستوى المضم الشيعي ، بل هو شعر شعبي نظم في لغة فصحة وقد استطاع هذا الشاعر ان يصنع لاشعاره الوطنية سيرورة فريدة في بلد غير متعلم غير واسع الامام بقواعد اللغة الفصحى والشعر الفصيح ، وفي عهد كان فيه الشعراء الشيعيون - امثال الشيخ محمد التويم وابوشريعة - يخطبون وحدان الجماهير النائرة باللهجة المحلية المشحونة بتيارات عاطفية اكبر والصق بالوجدان الشعبي .

وعلى كل حال العهد المهدوي يمثل فاتحة فريدة للتاريخ السوداني الحديث ولكن المؤسف انه يبدو متورا في كل المحالات ، فقد كان موت المهدي الباكر صدمة قاصمة على الثقافة السودانية اوقفت تطورها وعاقبت نموها بطريقة مفاجئة ، وعلى عكسه كان حليفته قد اقحمت مصره في مازعات سياسية مع قائل المهر ، التي ينتمى اليها معظم المثقفين في السودان وتحول الى رجل مريض كثير الشكوك وعلى يديه تم اصطهاد المثقفين والعلماء السود بين وجسهم وتشريدهم والتضييق عليهم في الارراق ، مما جعل من مدة حكمه عهدا مظلما من الساحة الفكرية ، وسارع نهايته الفاجعة على ايدي قوات الاحتلال البريطاني .

ان هذه العهود الثلاثة قد اسهمت بدورها الحاسم في صياغة الفكر السوداني وتشكيله وتقرير اتجاهاته وسوف يظل تأثيرها واضحا وملموسا مهما اتسعت المسافة الزمنية بينها وبين احيال السودانيين ، فمارال جيلنا الحاضر يعانى من التأثير المصوبى الذى جاء مع عهد الفونج ومن الحساسية تجاه اللغة وطاهرة التطلع الى مصر كاثريز من اثار العهد التركي ويتشوق مع ذلك الى ابداع فكره الخاص حريا على سس المهدية - وسواء قدر هذه الاثار ان تحتفى ذات يوم او تظل على نفس مستوى قوتها الخالى ، فانه يظل حقيقة واقعة ان سودانى الفترة ما بين ١٨٨٠ الى الان تأثروا ويتأثرون بتلك الاصول الاصلية للمفكر السوداني والدراسة الموسعة لتلك الحقبة كهيئة بان تكشف لنا عن مدى ذلك التأثير وانعاده ، وخصائصه ومراياه .



الفكر السوداني بعد ١٨٩٩

تحركت الاحداث في السودان بعد عام ١٨٨١ بسرعة مذهلة، وفي جو من السحر الباهر والعموص فمئد الانتصار الاول للثورة المهدية في ابا، تعاقبت الاحداث الفريدة وسارت الثورة من انتصار الى اخر حتى تم النصر بسقوط الخرطوم في عام ١٨٨٥ وقبل ان يستوعب السودان ماحدث، مضى رحل الثورة الاول في لقاء ربه وخلقه على القيادة الخليفة عبدالله التعايشي، فانهرف بالثورة في ظروف حطرة وحرحة وقل ان يفيق الشعب من دهشة المباغلة، كانت جيوش كتشنر تصك ابواب السودان، وتهدم قبة المهدي بالقذائف، وتخطم اقوى واصحهم جيوش المهدية في موقعة كررى

لقد تم كل شيء في حو من الدهشة الحائلة وعدم التصديق - انتصرت الثورة قبل ان يفهمها الناس وانحرفت دون ان يصدق الناس واندرحت بصورة فاحمة قبل ان يستوعب الناس الدرسين السابقين وتجربة الهزيمة القومية تجربة متكررة في حياة كل امة، ولكنها تتفاوت من حيث النتائج والاثار وقد كانت هزيمة الثورة المهدية في ١٨٩٩ واحدة من تلك الهزائم التي تعمم لاحيال، تاركة على واية الشعب وصميره احظر الاثار

ان هزيمة المهدية لم تكن حدثا عاديا، ولا هزيمة عادية ولم تكن مجرد هزيمة لثورة واستبدال نظام بنظام ولكنها كانت تعنى انهيار عالم كامل من الاحلام المقدسة التي شادها الشعب وامن بها - احلام اقل ما فيها ان الحق سينتصر ويغمر العالم، وان العدل سيسود الدنيا وان الخير سوف يفيض وان الذئب، في النهاية، سيرعى امنام مع العنم، والى جانب ذلك كان هنالك الوعد الطموح بان السودانيون سيكونون انصار الله في العالم وحلة رسالته الى الاقاصى البعيدة وان لهم السيادة في الدنيا والشهادة في الاخرة ثم فجأة انهار كل شيء - بطل السحر وافرغت المعصرة من كل محتوى، وسارت جيوش والكفرة فوق حث الشهداء وعلى انقاض القبة المقدسة، وانهزمت الفئة المؤمنة التي لم يكن مقدرا ان تهزم

ان هذا نفسه قد استعرق وقتا وجهدا لكى يصبح مفهومنا لدى حاهير الشعب فقد ظل قطاع صخيم من الجاهير يؤمن لسنوات عديدة بان المهدية لم ولن تنتهى وان الهزيمة نكبة مؤقتة وامتحان على المؤمنين غير عسير، وان الله في

النهاية ناصر حزمه واحد بيد حمله ولكن هذا الاقتناع بقى محصورا في القطاعات الشعبية ذات الاستعداد الحزبي، وظل يتناقض يوما بعد يوم امام ضغط الاوضاع المائنة حتى اعلن عن وجوده لمرة احيرة عام ١٩٠٧ في ثورة ودحيوية المهدي المتحمس وباحاد تلك الثورة واعدام قوتها بدأت الامور تتغير.

ومع ان التسليم بالهزيمة مستغرق وقتا حيدا متفوتين الا انه كان مرعبا حين حدث فقد انعمت الجماهير في حانة من الاستسلام والخذلان وتردت في وهدة اليأس والقنوط. بحيث افنعت بينها وبين نفسها بان المنتصرين الذين تمكنوا من دحر المهدي، لا يد ان يكونوا حنسا على من حنس البشر - حنسا احتضنه الله بمرحبا لا حصر لها وسط له السيادة على العالمين وكتيجة هذا الموقف شرعت الجماهير في اساع كافة المصائل والميرات على العرة الانجليز، واصبحت تتفحص اعمالهم وسلوكهم بنوع من الرضا والاعجاب

وبالرغم من ان المنتصر لم يكونوا الانجليز وحدهم وفقد كانت غالبية اخيش من الجنود المصريين، الا ان هذا الموقف كان لا بد منه لاشباع رغبة الشعب في التعزى الباطل فمن ناحية، كان نفس الجنود المصريون قد انهزموا قبل بضع سنوات، امام نفس الرجال الذين استشهدوا او اهرموا في كررى ومن الناحية الاخرى كان الانجليز في الواقع سادة الموقف والحكام المعلنين لمصر وفوق هذا وذاك، كانت الرعة في تريب هزيمة نحيى، الخ هير سيد به و هذه ندعة المصوحة لآوه في ذلك عبق الوقائع واحقائق.

ومهما يكن من امر، فقد طلعت حانة الاستسلام هذه مقترنة بنظرة التقديس للفرقة رمنا طويلا وتأثرت بها ثلاثة احيال من السودانيين هي: دولا - اخيل المهدي المهرورم اى حيل الرجال الذين كانوا في قمة وعيهم أثناء الثورة وسهموا بطرائقهم الخاصة في صنع احداثها ومعاصرتها ثانيا - حيل ورثة الهزيمة خيل الذى قضى طفولته وصباه في عهد المهدي وتلقى تدفة مهدوية وشهد اطرافا من حوادث العهد

ثالثا - حيل احفاد هزيمة وهم الرجال الذين ولدوا عقب او عشية الاحتلال في منحنى القرن التاسع عشر وشأوا في عهد الاحتلال وثقفوا على يديه في معاهده ومدارسه النظامية.

ولكى ندرس اثر الهزيمة على هذه الاحيال الثلاثة، لا بد لنا من الحديث عن كل منها على حدة:

المهزومون :

لاشك ان رحاب العهد المهدوي لم يكونوا كلهم من المحمسين للمهدية المؤمنين بها ، فقد كان هناك قلة من الذين لم يؤمنوا ، بل انما حقيقيا وبكبرهم تظاهروا بذلك وكان هناك اعلية . تمت بالمهدية اصدق الاتيان ولكن انما يصعصع وضعف امام الانحراف الخطير الذي تردت فيه الثورة على يدى الخليفة بعاشي وصحوا من الساحطين الذين تتكرب منهم المعارضة بمعنى احركا نوايا مهديين صميمين ولكن بلا ولاء خليفة المهدي ولاشك بهم كانوا بصورة او باخرى مرحوبين بسقوط اخيه شرعيا . لا سائر دعوته للمهدية بذلك وان كانت هذلاء كان هناك المؤمنون الى حد التعصب ، المحمسون الى حد البرهشة والذين لم يكونوا ليقبلوا اى نقد للخليفة ويلتزمون التزاما حرفيا بموضويع البيعة الاولى

وحين سقطت مدينتي في يد الجيش العارى تصرف كل هذه القوات حسب مسويات سربها بالمهدية وولائها للخليفة فقام اعداء لثورة الدين صلوا ضروب عهده في بطن والجفاء ، اعلان انتهاجهم وفرجهم لاندحارهم ، وهذبوا للجيش العارى مدينتي بثورة اميرومه وعنه اضرمة يمت شبح احمد شامي معب عن سحره بالانتصار وشهامة بالمدحورس في هذا الصمم تركيبت

نشرى لجيش بالغنوخ بعد ظفر	بالصبر هي زمن فتنش من ظفر
ونتركنا السودان لسنا ان نرى	الا التبعدي والنعو كما شنهز
حتى رأى ملك البلاد بانه	لاشيء غير الحرب عجل وانحدر
نفذوا الشهم اللوا سردارنا رخل	النجاسة هي الخروب الككشتر
فل للخليفة فر نعمرك ناحنا	من قبل ان يأتى زمان لا مفر

اما نغاصه المهدوية لى كانت تتمنى سقوط الخليفة فقد وقعت في حيرة ولم تمس ولكن سرعان ما تحبصت منها بعد الايام الاولى للثورة ، ووضعت كل مكاسبها في خدمة العهد الجديد ، وبصير مرهح ، والشيء الفاجع حد هو ان هذا الثوريو كان يصح اكار رحال الادارة واعضاء في عهد الخليفة رائدا مستشيرة واصفياءه . ولكن ذلك لم يمنعهم من توظيف طاقتهم في خدمة العائس ، بل عند قضاء المهدي السابقين ليسموا أعلى مراكز القضاء والافاء

في الدولة الحديده ، فأصبح شاعر المهديه الاكبر محمد عمر الس ، مفتشا للمحاكم
الشرعيه ، وصار بانكر بدرى موضع ثقة الاداريين الانجليز ، ثم مفتشا للتعليم
بمصححه اعرف

وقد كان هذا الفريق احظر من غيره اثر واشد نفوذا فقد كان يضم قادة الرأى
وصفوة شقيين وحر ماحدث العهد المهدوى من رجال وكان يجمع بين يديه
الى حدب اسلطة الاحتماعيه العليا اعلى مسطه للتوجيه الدينى ، خاصة وانه
كان يجمع معظم الفقهاء والعلماء فى البلاد ولذلك فان تحول هذا الفريق الى
خدمه الحكومة الحديده كان يعنى بطريقه غير مباشرة الترويج لمحصارة الغربيه
الوافدة واعلان صوبها لدى السلطات الروحية والاحتماعية ليس بقول فقط وانما
بالعمل وساشرة فقد تعلم اولئك السادة قواعد تدريس المهجى الحديث
وصبحوا سادة فى المدارس ، وقصة فى المحاكم ، كما تعلموا الى جانب ذلك
صول السلوك فى المساسات العامة وكيفية اقامة حملات الشى الخاصة على
الطريقة الانجليزيه وبلغ هم الحماس والولع بمحصارة الحديده ان تحصلوا من
برعات المحافظة التى تملبها عليهم ظروف الس والعصر ، واصبحوا اكثر تحمرا
واستعدادا للتقدم حتى من الحبل الذى تلاحم ومن الامثلة الموحية فعلا ، ان
بانكر بدرى (احد افراد ذلك الحبل) كان اول من افتتح مدرسة لتعليم البنات ،
وانه ظل محاربا من قبل تلاميذه بدعوى انه يدخل على السودان بدعة استعمارية
ردية وبقي الحبل على ذلك ردحا من الزمن حتى جاءت الاحيال اللاحقة
لتعترف له بالمبادرة والاحسان

نقد كان انتشار المحصورة العربية فى السودان حرب بان يتأخر ويصيق لولا
هذا الموقف لاولئك الرجال ، فقد ساندوها بحماس ، ودافعوا عنها وعملوا الجهد
ومافوق الجهد لتعللها وديوعها ولكن المارقة تأتى من كوسهم طلوا الى النهاية
محرومين من اى لقاء حقيقى بالخاسب الثقافى منها ان احدا منهم لم يسجح فى
تعلم اللغة الانجليزية وبالبالى التروء من الثقافة العربية ، خاصة وان الترجمة لم
تكن قد بدأت بصورة فعالة ، ولذلك يتلخص دورهم فى استلاف المظاهر
المادية لثقافة العربية ، للاسعانه بها على شر الثقافة العربية الاسلامية
فجدهم يأحدون التعليم الطامى بشكله العربى ، وأأحدون كاهه صحرات
المحصارة العربية فى مجالات الطاعة والشر والصحافة ليدعموا بها سلاحهم
الوحيد: الثقافة العربية الاسلامية

اما الفريق الثالث: فريق المؤمنين المتحمسين لمهديه ، فقد كان وقع

الصدمة عليهم رهيب ومدهلا وكما يقول الاسد محمد مهدي محدوب في مقدمته لديوان (خراب وشعب) - «لقد كان وقع هزيمة المهدي في كرري حيا وقد اعتبرها بعض سديين ادخلهم الكفة الهية لديبا» والسنة هؤلاء المكشوفين، كانت الامور تسير من سيء الى سوء، فقد كانوا عرضة لمطاردة دائمة وتشريد مستمر من قبل السلطات، التي صادرت منهم كل انواع خريبت، ونقضتهم بحجر رهائبا في كل مكان، فمعت بسن حطب والسمي بالانصار، واصبحت قراءة اراتب (وهو مجموعة ادعية وادكر للمهدي) صحت نشاطا محرم، وحوكم بسببها مقر من الانصار وحكم على احدهم بالسجن مدة سبع سنوات كما حظر لجمع قراءة الادكار. واعتدت السلطة على جماعات سدمية بالانصار في اشكنة فاعتالت الخليفة محمد شريف وشرف من اصحابه وفي تلك الموقعة خرج الامام عبد الرحمن المهدي نفسه وهو ما يراى صبي صغير (١٠ سنوات) ووسط هد لربعت سقطت حمائم المهديين في وهدة من الخرن والاسي بلا قرار، وتوقفت تماما عجله الاسك الذي بدأته مهدي في ايامه الاولى بهدف اداع حصارة سودانية، وبدأ قسوا بعهد المهدي برونول بعد بعيد عن الانصار حتى ان ابو شريعة الشاعر المادح معروف صطر الى احراق الجزء الاعظم من ديوانه (وهو جزء الخاص بمدح مهدي وحلقائه) واعمرل في قرية صغيرة حتى ذكاه الاحل وعيلوب الدس واصلوا الانتاج بعد هزيمة محصر وا في محلات صيفه من اشعر الصوفي، وعهم يقول الاستاد محمد المهدي المحدوب في المرجع اساق «ذهبت المهدي وكانت الرقابة شديدة على الشعراء المجاهدين سديين عاشوا بعد المعركة، فلم يسمع شعرا يصف هول الكارثة في كرري ولا في ابي ركة ولا في اشكنة، وعن اشعرء تعمدا لا يذكرها هذه الحوادث بعظمة رفضا للهزيمة ولم يجد هؤلاء الشعراء لمحروبو شفى من ادسح والتعلق بذات المحمدية وقد وجد هؤلاء الشعراء في هذا لشعر محلا لاعتزاف بالذات والتقصير ووجدوا عزاء والمفاارقة الكبرى في كل هذا هي ان هذا القطع من الشعب لم يفقد لحظه واحدة احترامه بالاحليل، وان كان كثير الشدد في مخاربه فكرهم وحضارتهم، شديد انتمت في رفض الاحتلاط بهم او اللجوء الى استعمال ادواتهم ومسخاتهم ومؤسستهم وتحققا هذه العاية كان هذا انقطاع يسحب يوما بعد يوم في

اقصى الريف، تاركاً المدينة لعبد الدنيا واشباع لاملحير حتى اصبح الريف معقلاً حقيقياً لاعداء احصارة والتقدم، الامر الذى قد يعسر التحلف القطع لدى معايه اليوم وبصورة غير متناسه مع المدينة بى حد من الاحوال ان هزيمة ١٨٩٩ تصع مهمة معالجته لتأثير المهذوى على الثقافة السودانية، ذلك لتأثير بى يبدو كأنه وقف على الاوان، وقبل ان يسور احارائه فى شكل حصارى مسمير لسمات، والذى لم يعاد احياؤه وبغته لا بعد مضى زمن طويل وبصورة لا يستطيع مفكر مخلص ان يعلن عنها رضاءه الدم وحلال تلك لصحوة الرمية لكثيرة صاع من الاثر المهذوى عصر كبير من عناصر حماته وتفوقه واصالته.

الاثر لآخر اهم هو افتتاح ابواب السودان للحصارة العربية والحماس الذى قولت به من انصارها وعدائها فى حيل المهذويين مهرومين، ولكن الاثر البقى ولاهم هو الانسهار الذى هط على احماهير السودانية وهى تستقبل العرة وثقتهم وروح التناؤل الذى اعقب تلك الدهشة الاولى بحيث تم تصيب العرة موكا على العالم، وبحيث توقف كل دفع وطى يستهدف التحرر وتقرير مصير، وللمدة لم تقل عن ربع قرن.

ورثة الهزيمة :

يتكون هذا الجيل من اطفال المهذية وصياها وقتيها - من الدين ولدوا عشية الثورة وعقها والدين كانوا فى العشرين، او دوماً بقليل، حين تم الاحتلال لاملحيرى للبلاد وعلى هؤلاء يمكنا ان نطلق دون خوف من الزلل، لقب جيل الثورة فهم وحدهم الذين نشأوا فى ظل المهذية وتربوا بثقافتها ولم يعرفوا اى نوع اخر من الحياة عبر نوع حياتها وهم وحدهم الذين حفظوا التراث والقرن فى حلاوى المهذية، وتدرجوا فى مدارج الوعي فى حصص احداثها ووقائعها.

هذا الجيل حذف حذفاً من تاريخ السودان بمجرد حدوث الاحتلال اين دهبوا؟ واي شيطان تحطهم؟ لا احد يدرى، فقد صعدوا صياعاً غير مخفيين ورثهم اثر دا شأن واذا كان لا بد للاحتلال من صحاب، فان هذا الجيل وحده، هو حيل الصحاب فعلى حين كان حيل الهزيمة وحيل احصد الهزيمة يسمون على موائد الحكام الجدد، كان هؤلاء يفكرون فواهم من الدهشة وبخوصون حياتهم اسهاراً ودون فهم او تصديق

لقد هبطت اهريمة على رؤوسهم كالصاعقة وترتهم من العالم بصرية سيف
فلاهم من المتفهمين الناصحين الذين استلموا مراكز القضاء والتدريس في الدولة
الجديدة ولا هم من تلاميذ المدارس الحديثة التي افتتحها الانجليز وعلى هذا
الاساس كان يحكموا عليهم بالنزول والصياح والانزواء في اقصى ركن من
المجتمع.

لم تكن اعمارهم تؤهلهم لشيء خطير، ولم تكن ثقافتهم تؤهلهم لاي شيء
اطلاقا، فعلى حين كان اطفال ١٨٩٩ يدخلون المدارس، كان هؤلاء قد
تجاوزوا السن القانونية لدخولها وأدهى من ذلك انهم كانوا غير مبرزين في
ثقافة من اي نوع عدا الثقافة المهدوية التي عدت في عهد الاحتلال عملا
احراميا ومضادا كما انهم ورثوا اخلاقية خاصة قوامها المصالحة مع العرف
والمجتمع والحيل والوالد وبمقتضى هذه الاخلاقية كان عليهم ان يملوا
مصيرهم بكر صواعية وان يستسلموا لتوجيهات جيل المهزومين، راضين
بمصيرهم دون تدمير من اي نوع ومحافظين على التقاليد العظيمة التي ورثوها
مع الهزيمة سواء بسواء.

وفي عمرة ذلك الاستسلام للصياح، حمت صوت هذا الجيل، ولم يختلف
وراءه سوى اسماء حafة ومعصورة هي اسماء المؤرخ محمد عبدالرحيم والمرحوم
محمد احمد على العمرابي والشيخ ابراهيم التليب، ولكنه الى جانب هؤلاء
نحبت اسماء داويا وجهيرا كصرحة اليأس الاخيرة، هو اسم الشاعر محمد سعيد
عباسي الذي استطاع بشاعريته الفدة وحياته العريضة العيفة ان يملأ سمع
الاجيال المعاصرة واللاحقة.

لقد وضع محمد عبدالرحيم - كما يروون - اكثر من ثلاثين مؤلفا في التاريخ
والادب والاحتجاج ولم يطبع منها سوى نضع كتب لعل اهمها «نفثات اليراع»
والمرحوم العمرابي ترك الاف المقالات متناثرة في صحف الخرطوم والقاهرة والدا
عددا من المخطوطات التي لم تر النور. واما التليب فقد كان واحدا من شعراء
الصوفية والتقليد وكان في زمانه شهيرا متصوفا ولكنه اكنى في شعره تركوب
الموجة الصوفية وحين انحسرت انحسر معها وصار من المغفورين في زماننا
هذا

ان الصياح يترنص هذا الجيل ويدهامهم في كل مراحل حياته. وبرغم الماراة
التي منحهمها هذا الوضع الا ان الجيل لم يتحل لحظة عن الثورة والتقدمية في
كل موقفه الفكرية فالعمرابي ينضم الى جمعية اللواء الابيض ويصبح من

اعصائها البارزين في وقت كان فيه الجيل المهزوم والجيل الحفيد يرون في تلك الجمعية غاية التطرف والانهيار والاندفاع والعباسي كان مصري النعمة وعاطفا على ثوار ١٩٢٤ دون شك . اما محمد عبدالرحيم فانه بعقريه ملهمه ، يتفوق على حيله في جميع هذه النواحي - لقد بدأ من لا شيء تقريبا كان تعليمه بسيطا ومهدويا غير مكتمل ، ولكنه استطاع بعصامية نادره ان يتقن نفسه وان يصبح اول مؤرخ سوداني يكتب بروح علمية يتوفر فيها التدقيق والتحقيق والحياد وهي عناصر اساسية لكل من يتصدى لتسجيل التاريخ وهو الى جانب ذلك اول عالم اجتماع سوداني وفوق ذلك هو اقدر شراح الادب الشعبي ودارسيه وواحد من اوائل المشتغلين بالصحافة من السودانيين .

وعند هؤلاء الرجال الاربعة يمكننا ان نلمح بوضوح عمق التأثير المهدوي واصالته فادا اخذنا المهدية على انها دعوة الى العودة الى الاصول ، لوجدنا هؤلاء الرجال اول من رفع شعار هذه العودة وبرز كل منهم في مياديه مستندا الى الاصول الاسلامية او العربية لذلك الحاسب الثقافي الذي تخصص فيه . واذا اخذنا المهدية على انها دعوة الى الابتكار وانداع حضارة جديدة فعند محمد عبدالرحيم نجد هذا الاتجاه متجليا في صورة قومية رائعة من صور الدفاع عن الثقافة الشعبية .

وفي احاسب الادبي يبدو العباسي والتليبي من الناحية العامة كالتوأمين ، فكلاهما من رجالات الصوفية ، وكلاهما عارف عن المجتمع ، « كثير التجوال بين المدن والقرى وله في كل منها اصدقاء كثيرون يحتفون بمقدمه » (١١) ولهما نفس الاسلوب التقليدي الممض في التقليدية والجزالة وهما فوق تلك ينتميان الى نفس الجيل الصائغ المقتضب : حيل ورثة المهريمة

ولكن اوجه الشبه بينهما لا تخرج عن هذه الاطر العامة اذ انها يختلفان اشد الاختلاف في مقومات الشخصية وفي التكوين النفسي ، وبالطبع في حطهما من الاجادة فيما خلفا من اثر شعري ولكنها مع ذلك يلتقيان في ناحية هامة لقاء ربما كان تلقائيا وغير مدبر ، فهما الوحيدان اللذان احتفظا من المهدية بدعوتها للرحوع الى الاصول الاصلية فتركا حائبا الادب العشائري الذي كان لا يزال بعشعرش في كثير من البلاد العربية وتعاملا مع ادب العرب القديم الاكثر اصالة وعراقة والتمثل في ادب الحاهلين والامويين والعباسيين . ومع ان الفضل في هذا

لأنه يعود لمهدية لا أن احدا من المهدويين لم يبلغ به ما بلغ من لتوحيد
والأخبار وكفى بـ الخيل التالي - خيل حصاد هزيمة - واصل السير في ذلك
الطريق ، لا أن العباسي ورصفه يصرون عنهم بالمدة ويمارس العباسي
سهموه نشأه في جميع شعراء المهدويين في السودان ، سوء اكوا من الخيل
السابق أو الخيل اللاحق .

ب شخصية عباسي - هرة تمش الخيل كله ، وإذا كان فرد واحد يستطيع
ب بسوءه خلا كما لا بـ العباسي هو ذلك الفرد في طوفا شخصيته
اساسه ، انتهى بحره حبه وصداقه والامه ، الى جانب تلك لدفع والميرت
لدته بـ بتي سطره على حبه ويحب قدره

ب بة عباسي هي مصوره اخرى دراسة خيه المهرم ، وكى تنهم
ورثة هزيمة ، لا بد من سماع صوتهم الاعى والاعى ، والوحيد محمد سعيد
العباسي

محمد سعيد العباسي :

صف عباسي على مفرق الطريق بين حدين خيل المهدويين المهرمين
والخيل محمد الذي بلغى ثباته على ايدى الانجليز فهو تلميذ بالنسبة للشيخ
محمد عمر لسا ورصفه ، وهو من لاجبة الاخرى بكر البيا الصغير وخيله
عشرين عام وكه عموفا اقرب الى ان يكون امتدادا رسميا للمهرمين فهو
موجود في حواشي عام ١٨٨١ ، وحى تم الفتح الانجليزى المصرى كان في الثامنة
عشرة من عمره . فهو بذلك قد شهد طرا من احداث المهدية ، وتلقى الثقافة
الرثة على لعهد المهدوي ، ولم بدخل بعد تلك السن مدرسة ذات شأن في
توجه فكره وثقافته . وحدث الموجد الذي عرض له في بقية ايامه ، وكان دا
اهمة في حياته ، هو لقاءه بالشيخ عثمان رماني . اسناد اللغة العربية بالكلية
اخرية بمصر . الذي كان اول من وجهه الى كنوز الادب العربى القديم ،
وساعده على فهمه وتذوقه وذلك « رأى بى احفظ القرآن وان لي معومات
بالبحر والمعروض ، ثم بـ اى ودسى وصار يملى عليا في اخصه شيئا من الشعر
وبطالبي سوع حاص باستظهار ويعنه معانه » (١٢) وقد بقى العباسي حتى

ملسمعنا بمثلهم منذ كنا
 غير علا لاولى وغير ثمود
 قال قاضيهم لصربوا الشيخ للفا
 ضرب ذى قوة وبأس شديد
 لا يحكم من الكتائب ولكن
 كان رأيا ولكن غير شديد
 فجئنا ثم قال يقوم ريدوا
 فوق هذا ويا شداثد زيدى
 ان ربى هو اللطيف تعطلوا
 فاشهدوا بى لطف العربي المجيد
 ضربه فقام برسف كالمصعب
 ذى الروق هى ثفيل القبود
 لم يبين من سياطهم وهى ألف
 ياحليلى غير سوط وحيد
 يالها من كرامة لولى
 لم تفته كرامة الصنفيد

«الطبعة الثالثة - ص ١٣٩»

ولاشك ان العاسى ظل على هذه الكراهية للعهد المهدوى حقة طويلة من
 عمره، ولم تنحصر بها الا بعد مرور اعوام كثيرة تعبر خلالها وجه الحياة
 والتاريخ، واصبحت الثورة المهدية ممحرة قومية للشعب السودانى بأسره
 ولكن حتى في هذا التاريخ المرب لا احد لدى العاسى يحيدا مباشرا لتلك
 الثورة الا عرصا عام ١٩٥٩ في رثائه للامام عبدالرحمن المهدى، وقد جاء
 متأخرا عن آوانه ومشفوعا بالاعتذار

وقد كان منتظرا لسبل اسرة تعرضت للعت والارهاب اياها العهد المهدوى
 ان يحذ عظمها وترحيها من الحكام الحدد فيستعينوا به في نصريف اعمامهم وتشيت
 دعائم حكمهم بار بمنحوه منصباً ومكاناً في النظام الجديد ويبدو ان هذا كان
 وجه الانحليير في الايام الاولى، فقد طلب اللورد كتشير من والد الشاعر ان
 يدرجه بالمدرسة الحربية بمصر، وقد خلقتها في ٢٨ مارس ١٨٩٩ وادرجت في
 عداد بلامدة من السودانيين يبلغون ٤٥ تلميذا وبعد سنتين من انتظامى بها

استعصيت لاننى رأيت ان لا أمل لى فى الترقى وان كنت اول الناجحين فى الامتحانات والسبب ان نظام الترقى للسودانيين هو الاقدمية لا بالتفوق كنظام التلامذة المصريين . فقدمت طلبا بالاستعفاء وانا بالخرطوم فى الاحازة السنوية فقبل الطلب، وبعد هذا الحادث استمرت السلطة فى اتباع سياسة التجاهل بالنسبة للشاعر فلم يجعلوا له مكانا يتفق مع علمه وطموحه ومكانته، ولم يقوموا نحوه بأى صورة من صور التقدير . ففى الوقت الذى كان فيه الجيل المهدوى المهزوم يتقلد اسمى المناصب القضائية والتعليمية والادارات الاهلية، كان هذا الرجل الذى لم يرنج يوما للحكم المهدوى، يضرب عبر الفياق وحيدا ومطرودا من موائد الحكام

ويبدو ان فى حياة العباسى سرا حكم عليه باختيار المنفى، فمن ديوانه نكاد نشم رائحة نزاع داخل العائلة، لعله نزاع على قيادة الطريقة (١٣) ويتحدث الينا العباسى مخنقا عن ابن عم له لم ينصره، وعن شخص يتناهى عليه «باموال التعاويد والرقى» وربما تضافرت هذه الازمة مع الازمة الاخرى لتجمل المشاهر يهرب الى الصحراء بعيدا عن اعين المجتمع، حيث يجد نوعا من العزاء بارضاء نزعات الفروسية والغزل فى نفسه الشاعرة .

ولم تكن تجربة اللجوء الى الصحراء اولى محاولاته لاعتزال المجتمع والبعد عن ضوضاء الحياة ففى سنواته الاولى امعن العباسى فى التصوف واعتزل العالم بمشاكله وصداماته وصراعاته واخذ قلبه وحسه لنداءات الحب السامى والتقرب الى الذات، فتراه يجعل بالتشطير والتخميس ويجرى ذلك على اشهر قصائد المتصوفة كائى مدين والشبلى، كما انه ينشئ قصائد صوفية صرفه مثل قصيدته (النفحات السانية) و (عبر الايام) وقد يصعب على المرء ان يصدق ان العباسى هو صاحب هذا الشعر مثلا :

بالح لله سر فى طاعة الله
ودع مقل عذول طلعوى لاهى
وقف على قدم لاداب ملتزما

(١٢) هذا قريب من قول الدكتور الشوش «وحس لاندري على وجه التحديد الظروف العائلية التى اورثته هذا الصيق وملاّت قلبه باحساس العربية والصباغ وربما كان ابعاده عن رعاية بيته الدينى وعدم لحاقه بمكانة ابيه واجداده من اشراف الطريقة السعدية لها اثر فى ذلك» - الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش ص ١٠٢

فما عدوا كاللدى كانت أوائهم
تنتهى. ولا حسنا صانوا ولا شهما
رضوا من المحدث أن أثروا فما طمعوا
في الصالحات ولا دافوا لها طعما
جار الزمان هجئنا نستخير بهم
من الخطوب فكانوا الحصم والحكما
وما نرى القوم أنا لولياؤهم
لبننا السوائم بالمرعى ولا العجم
لولاهم ما اضطرحت المسيف نعرفه
كفى ولا رصيت من بعده العلماء

ولكن هذا السراع الضعيف لا يبنون نظرة العباسي السياسية، فهو معص
للحكم الانحسري الاستعماري، وهو تحت لمصر حب حاصلا وهو يرى
فيها طريق الحرية والخلاص. ليس فقط لأنه يفسق باختم الانحسري.
ولكن لأنه معجب بالثقافة والحصرة التي تمشي مصر في حب في طلبهم
وواضح في الديوان أن أشد مظاهر هذه الحصرة عند العباسي هو مفهم
انحزام الأدب وانصافه وانزاله المرل اللائق به من عظماء الأمة وليس هذا
بدعا لدى العباسي، فقد ظل هذا المفهم انحصاري في مصر تحت يد
عواطف الادياء السوديين غير الاحبال، وبكده يصحح لدى العباسي تصفه
خاصة فحين كتب اشعاره هذه، كانت قصيدته شوقي سر في تساجه
الاهرام، وكانت مقالاته فيه حسن تصدر - السياسية لاسوعه، وكان
المجتمع المصري بعض باحار الادياء وبقائهم مابى امير اشعر وعملاق
للادياء وعميد للادب ولم يكن العباسي يرى نفسه احط قدرا من شعر مصر
ولكنه كان يتلفت حوايه في السودان فلا يجد ادبا تصعى الى اشعر ولا عجم
تشره، وحسب ذهب الى الرقيب في عام ١٩٢٨ لسمح له بشر ديوانه
الرقيب فهم لديوان ومع شره (١٤) ومن هنا نجد حب مصر لدى العباسي

(١٤) يروى الاسماء حسن تحفة في ملاح ص ٢٠٠ ثم قد يستعرضه في بعض قصائد
ديوانه فظل يرفصها وحده بعد اخرى حتى وصل في قصيدته في مطلعها ديب
حسن صدى) وهو مطلع عرو قد عسى ليد يسطر هذه القصيدة فحار لرقب هذه
قصيدة سياسية مدح فيها حسن صدى ناش وكار رئيس امة المصرية بد فصحت
لعباسي وجمع ديوانه وخرج وأثر تأجيل طبع الديوان

مرتبطا بظاهرة تقدمها الادبي واحتفائها بالادباء والمفكرين، بل ان شعره في مواضع كثيرة يفصح عن ذلك الارتباط

آه لو كان لى بساط من الزبح اولهيه او فوادم نسر
فأطير نحو مصر اشيقا انها للاديب احسن مصر

وايضا

فلو كان لى علم ما فى عد لما بعثت مصر بسودانيه
عدتلى طيب ذلك الثواء حوى قدف حيلها عاديه
وودعتها امس لاعى قلى ولم تكن النعب بالناليه
الى بلد عشت فيها عربيا بعيدا عن الناس فى صاحيه
أقيم بها فى صدور المطى للمرخ تحدى وللصافيه
لعللى اصيب بتلك البطلح صلبى وداهب اياميه
رعى الله مصر حكم للاديب بها ثم من عيشة راصيه
واحبيب بأيامها الداهيت على ملها وعلى مابيه

وحتى عندما يخاطب السودانيين مستغرا اياهم للمهوس والطموح، لا يكتفى بتذكيرهم بالمجد العرب التى حارها فى اساء الاساطيل والطائرات، بل يذكرهم ايضا بمجد مصر التى برتهم بها، وهى فى نظره شعر شوقى وشرا الرافعى ويقرن بين هذين وبين الاساطيل والطائرات كما هما سواء من النوع والمرة

هل شدتمو يقوم لسطولا على البحر محر
او طائرات بالنسما ترمى الاعلاى بالبر
او حذرت اقلامكم لنا من الاى العبر
كمثل شوقى اد شدا والرافعى اد نثر

وحب مصر بهذه الصورة الكاسحة، امر متواتر فى شعر العباسى وشعر غيره من السودانيين فقد كانت مصر قبله العالم الاسلامى منذ عهود سحيقة، وكان نضامها فى العقد الثانى من هذا القرن، ملها للشعوب العربية، وقائدا لاشواقها وتطلعاتها. وحين كتب العباسى هذا الشعر كان الشباب السودانى يستشهد فى معارك الكفاح، ويقف امام محاكم الاستعمار، ويذوى داخل

السحور باسم وحدة وادى النيل ومن احلها وقد تحلف دوافع الشاعر عن دوافع اولئك الشباب ، ولكنه كان سجدا معهم في الهدف ملتقيا معهم في بغص الاستعمار البريطاني ، ومقت دعاء الانفصال عن مصر مهما كانت شعاراتهم التى يحتشون تحتها فنراه في احدى القصائد يهاجم القومية السودانية لا لانه صدد هذه القومية من ناحية المبدأ ولكن لاسها في نظره دعوة انفصال

وما تريدون من قومية هى فى
رأى السراب على القيعل رقراقا
طلبتم الغرض الاسمى بتسمية
كل بالاسم تحريرا واعتاقا
لقب او اسم لقلم الغافلون له
سوقا وانشأت الاغراض اسواقا
وما أرادوا يعين الله اذا وضعوا
جمع الشتات ولا للحق احقاقا
فمحسوا الرأى لا ترضوا ديالعه
ول اصلب هوى مفكم وان راقا
لا تحدعوا ان فى طيات ما ابتكروا
معنى يغيبوا وتشتيتا وارهاقا
ليصبح الدليل اقطارا موزعة
وسلكوا النيل لشياعا ولادواقا

وقد كان التمكن السياسي في ذلك العهد يهاشى هذه النظرة فمثقفو الفترة كانوا يعتبرون السودان اعحر من ان يحكم نفسه بنفسه وان لاسبيل سوى المفاصلة بين المصريين والانجليز لاحتيار احدهم كحاكم للبلاد ، فأحتاروا مصر لتقارب اللغة والمصالح والمراخ وابتذوا الانجليز لما رأوا منهم من العسف والتعالي وبذلك لم تصبح قضية القومية قضية ملعاة ، بل قضية مؤحلة وفي شعر العباسى نفسه تلمح بواذر الشعور القومى في كثير من مكان ففي قصيدته (ستار بين القديم والحديث) و (وادى هور) نراه يقف على اثار ممالك سودانية ، باكيا على العرة الزائلة والمجد المندثر ومع ان الصديق الشعورى في هاتين القصيدتين ، يحتاج تحت ستار كثيف من التأثر وتعدد الاغراض الا ان مجرد الحديث عن ماضى السودان الخاص له دلالة في وقت

كان فيه الشرق باجمعه لا يرى له تاريخا سوى التاريخ القديم المتجسد بالمجاد
صدر الاسلام وعهود الخلافة الزاهرة
وعند العباسى ايضا تلتقى مرة اخرى بمظاهر النعمة القومية و قصيدته
(كفاح مصر) حيث يذكر مفاحرا ان الخنود السودانيين الذين شهدوا معركة
النل لكبير بين العرابيين وحيش الاحتلال، امدوا شجاعة فائقة وثبتوا حتى
فنوا عن اخرهم

سل عنهم وقعة النل الكبير وسل
ان شئت من قرا التاريخ لو رقما
وانت ادري بما لا قوا فقد حصدا
حصدا وما زحزحوا عن موقف قدما

وفي نفس القصيدة يذكر شهداء ثورة ١٩٢٤ وابطالها متحسرا وممجدا ومثنيا
على كفاحهم وسحائهم وشجاعتهم
ولكن عوامل كثيرة تصافرت لتضعف شعور العباسى القومى، فقد كان كما
رأينا يرفض المهدية، وهى صلب تاريخنا الوطنى ومفحرتنا القومية الاولى
وقد كان ساحطاً على الحصار الغربية الوافدة التى لم ينل منها السودان سوى
قشورها وشرورها ومن هنا صرف طاقته الشعرية و دم الزمان وشكوى
الدهر والحدود لعواثر مع التعنى ماعاد عامة لا يمتلك معها علاقة خاصة او
حميمة

لقد كان العباسى محكوما بكل هذه الظروف كان مقدورا عليه ان يأتى
فى نهاية حيل الهريمة، وفى البداية الباكرا للحيل الحفيد فيجد نفسه خارج كل
من احيين ويجد نفسه يلعب الحيل المهزوم ويساير الحيل الحفيد ولكن من
الخارج، وليس الى نهاية الشوط كان محكوما بعصره وتاريخه ومولده وكان
محكوما بصا ثقافته الدينية واللغوية التى تفتقر الى عنصر العلمانية، بعكس
الحيل الحفيد الذى تروى بالثقافة العربية المجددة من جانب، وبالثقافة
الانجليزية من الجانب الاخر، فاصبح لقاؤه بذلك الجبل سطحيا ومحدودا
وعلى مستوى الشعر، يبدو بوصوح سطحية هذا اللقاء فقد كان
لعبسى الى حد كبير، شاعرا تقليديا على مستوى البارودى فى حين كان
الحيل الحفيد تقليديا على مستوى شوقى وحافظ واحياءا احداث من ذلك بكثير

ومن الغريب ان يتحدث العباسى عن وحدة وادى النيل او يوم التعليم فيفتح حديثه بالعزل حريا على سنة الحاهلين ومن بأحر عهم ، على حين يصطنع الخيل الاحر لعة اقل حرالة واكثر بساطة لقد كانوا - بلعة العصر - محددى فى حين ان العباسى لم يكن شديد الميل الى الحديد ويلخص موقفه الشعرى هذه الصورة التى صاغها فى بيت من الشعر يتحدث فيه عن شعره

عبرى الطراز ماملت فيه
للقديم البالى ولا للجديد

وهذا هو بالضبط موقف البارودى ومعاصريه الذين يمثل شوقى بالنسبة هم خطوة الى الامام وبعيدا عن التقليدية
يقول العباسى :

فقدت ثراء المال وازور جانبى
ولم يبق لى إلا التوجع والشعر

وهذا يلخص القضية جيدا بالنسبة لورثة الهريمة فهم فى حقيقة الامر لا يملكون اكثر من هدين التوجع والشعر اهم لا يملكون تفقه الخيل المهزوم فى النواحي الدينية ولا يملكون علمانية الخيل الخفيد الناقصة - لم يكن بايديهم غير سلاح وحيد لبحاسوها به العصر هو العربية ومن العربية ادبها ومن ادبها الشعر بالذات والشعر فقط وبالشعر كان عليهم ان يعيشوا القرن العشرين ولكن الشعر تقصف فى ايديهم امام زحف الحصار وتعمد الحياة ولم يجدوا لا هذا التفى الاختيارى .

إن حياة العباسى وشعره يصيخان ابعاد هذا المنظر المحزون ، وتردده بين البادية والمدينة ، وتردده بين قبول الحصار ورفضها يقوم دليلا على الارمة التى عاشها ورثة الهريمة حين لم تحجر عليهم الحصار الوافدة هائيا كما فعلت بانائهم - قبول او رفضا - وانما املت عليهم ان يعايشوها مرغمين

وانبدوا هذه التى رفاها الغرب اليكم حصارة براقدة

هكذا يقول العباسى وفى امره ساليه تحف الدهحة وتتحوون الى عتاب

حزى الله هاتيك الحضرة شر ما
 حزى من تصارييف للزمان المعتمد
 فلم تك يوما والحوادث جمة
 حمى للضعيف لوصلا حلا لعاقد
 شقيننا بها حتى لبثنا ادلة
 واغلا لها منا مكن القلائد

ثم فجأة يتكص:

ان الشعوب بنور للعلم مؤتلفا
 سارت وتحق لواء العلم خفاها
 وطوفوا ببقاع الجوهام تملكوا
 عصيها وبقاع البحر اعماقا
 وكل بحر احلوا موجه سفنا
 لم تشك لنا ولا وخدا واعماقا
 فى الشرق والغرب تلقاهم وفد بسطوا
 ظل الحضرة بقلبين طارقا
 ياحسنها لو حوت امنا وعافية
 لكنها قد حوت فتحا واحداقا

ويظل هذا التدبذب بين حدى الاختيار قائما وغير منحسم فى كل انقطاع
 الديون فامسألة لم تعد لرفص والقتال حتى احر نفس - كما فعل رجال كبرى
 ونما صحت حيارا بين المعاندة والتسليم بالهزيمة وكان كريات هذا الحيل
 يمسعه من التسليم ووعيه يمنعه من المعاندة، ومن هنا كان حتما ان يختار المنفى
 - ن يهرب الى الصحراء ومع ذلك يغشى المدينة من حين الى حين

٣ - احفاد الهزيمة

اما هؤلاء فلم يشهدوا الهزيمة الكبرى فى كبرى ولم يكونوا على قدر كاف
 من الوعي ليتفهموا معناها فى سنوات العرو الاولى حين كان العرا يضاردون
 فلول المهزومين ويطبقون عليهم قوايس الانتصارات العسكرية لقد كان

بعضهم اطماعا لا حيثث وكان بعضهم مايرال حسنا في رحم العبد وهم بلاشك سمعوا كثيرا عن الهزيمة في ما بعد ولكن في ظروف معاكسة لظروف حدوثها وبعد ان هبط بينهم وبينها حاجز زمني سميك حدث فيه تعبير في لولاء وبدأت في الظهور نغمة قوية من نغمات الاعجاب بالعزة وتسبيح دائم بمحمد الامن الذي اشاعوه والنظام الذي اقروه على عرشه السليب ولذلك كان على هذا الخيل ان يتلقى درس الهزيمة بطريقة جد مختلفة.

لقد تعهد الاستعمار بتشتيتهم وتثقيفهم في مدارس الحديدية وترويدهم بنوع جديد من اساليب التفكير والتعبير بحيث اصبحوا اوسع افقا وادراكا واشد نهما ليس فقط لظروف الوطن السوداني بل لظروف الوضع العالمي على وجه عام وبمصل هذا الوعي استطاعوا ان يفهموا الهزيمة في اطارها الصحيح فلم يروا فيها مجرد الانكسار العسكري الذي قدف بانائهم في احصاء الحيرة والانخدال وانما رأوا فيها بجانب ذلك بشاعة التأخر الحضاري وقطاعة الانشاء الى امة مقهورة ومستضعفة انهم بعبارة اخرى قد تنقوا من المدرسة لظماية الحديدية درس الهزيمة الكامل ثم عاشوا تفاصيل ذلك الدرس بعد معادرتهم المدرسة - عاشوه في صورة التضييق عليهم في القول والعمل وفي صورة الحرمان من الوظائف الهامة واحتكارها للاحباب وفي صورة الحرمان من حريات التنظيم والمحاطة وعاشوه في وعيهم الدائم بما يقص منهم من اشكال الحضارة ومؤسساتها.

لقد حلت على هذا الخيل لعنة الهزيمة وهبطت عليه بشقلها الفادح بحيث اصبح مطوقا من كل الجهات فمن ناحية كانت قيادة المجتمع ما ترال في ايدي المهدويين المهزومين الذين تحولوا الى مدافعين عن النظام الحديد ومن ناحية اخرى كانت اخلاقيات هذا الخيل لا تحلم بمجرد حلم بالخروج عن طاعة الخيل الوالد ناهيك عن مهاجمة وعقوقه ومواجهته بان يذهب هو وانجليه المقدسين الى المحميم ومن ناحية ثالثة كان نوع التعليم الذي تلقوه والدور الذي رسم لهم لا يؤهلهم لقيادة ثورة احتساعية فقد كانت المدرسة تحشو رؤوسهم بالمعلومات في اقصر فترة ممكنة وتقذفهم الى المصالح الحكومية وفي وظائف ضئيلة الشأن يجرسها جهاز دقيق من الارهاب والوصولية والسعاليات وتتحكم فيها اهواء الرؤساء الانجليز وحودا وعدما وعلوا وانخفاضا

وفي هذا الجو الخائق كان حتما ان يفقد ذلك الخيل كل مقدرة على الرؤية وان تظل رغبته في التغيير حبيسة في اطار غائم من عدم الرضا والبحث عن

العرباء فحلل عشر من عاما ونيف الترم المثقفون بنوع مريب من الصمت ولم
 يقوموا بى حركة بحاجبة وطنية تستهدف الاستقلال والحرر الوطنى
 والاعرب من هذا انه لم تبصر اية نادرة خلال تلك السنوات العشر من تدل على
 ان المثقفين قد فرروا - كجماعة - ان يحاربوا المستعمرين ويناصروهم العدا
 وعلى العكس من كل ذلك نحد لدى هذا الحيل اعرارا فريدا للمستعمرين
 وتسليها بضرورة استعمارهم للبلاد - تلك الضرورة التى يفسرها الصحفي
 الاول حسين شريف بقوله «ان كمائتنا الذاتية تبعد بنا فى الوقت - حاصر عر
 اندرحة التى تؤهلنا حكم امنا بانفسنا دون مساعد او مرشد» ولذلك كان
 وجود المستعمرين الانجليز مهما فى نظرهم بل ومرغوبا فيه ومن هنا نجد
 شعرائهم لا يتحرجون من مدح الانجليز او رثاء كبرائهم والاشادة بآثارهم كما
 لكاتبين لم يألوا جهدا فى الدفاع عن حكومتهم العادلة وتذكير الناس
 بفضائلها وذهب بعضهم مذهباً متطرفاً فى هذا الاتجاه كما يبدو فى عرائض
 لولاء لى رومها وحاء البلاد الى الحاكم العام بمناسبة دخول السودان فى
 حرب العبية الاولى حنا الى حنب مع بريطانيا تقول احدى تلك
 العرائض «رفع لحكومتنا العادلة ولاءنا واحلاصنا قلبا وقلبا اذ لم نر منها
 سوى احترام دينا وتوظيف القضاء الشرعيين للفصل فى امورنا بموجب
 الشريعة المحمدية وتشيد المدارس لتربية اولادنا وتعليمهم وتسهيل طرق الحج
 والرياسة لبوية وشر العدل والامان فى جميع انحاء بلادنا وحسن معاملتنا»
 ولكن هذا المظهر المستسلم القانع لا ينبى ان يلهينا عن حقيقة هامة هى ان
 الحين حميد ظل برعم ذلك حلا ساحطا عاصبا وغير راض عن اى شىء او
 شىء لقد كانوا لا يعرفون ما يريدون وكانوا اسرى حلم عامض بان
 يوحدوا فى عبر عصرهم وان يعيشوا رما عر رميه وكان عليهم ان ينتظروا
 عشرين عاما ليعرفوا طبيعة حلمهم المححول
 وقد تدحلت الظروف مرة اخرى لوجههم فى لوجهة احطأ فقد كان الشرق
 عموم فى تلك الايام يعيش فترة يائسة من حياته - فترة مليئة باسعادات
 مكرورة للاعحاد الاسلامية القديمة ومباهاة م هي شىء ما تكون بمباهاة
 المفسس بعراقه سبه ومحتده وقد تلقف الحيل الحصيد هذه النعمة الرتبية من
 بقية لبلاد العربية فبدأ يؤكد اسماء العربى الاسلامى ويستعيد صور الماضى
 الراهبة مصطفى عامم ركيزة له فى عالم يتطق نفوق لاوربيين ويشهد هوان شأن
 العرب

كانت هذه النعمة اخر ماتبقى لهم بعد العزو فقد فقدت بلادهم مقدرتها على العطاء الحضارى منذ امد بعيد وانتقل مركز الثقل الى اوربا بحضارتها المتوثبة التي بدأت تكتسح امامها قلاع العالم القديم من ادغال افريقيا الى حوايط الصين . ولم يعد بايديهم ما يعاخرون به سوى اسلامهم واتحاد ابائهم العرب فضلا عن ذلك فقد كانوا اصعب من ان يتوجهوا للحضارة الغربية باى نقد موضوعى يكشف عن مواطن الضعف فيها ويبقى على شيء مما قدمت شعوبهم للعالم ومن قلب هذا اليأس انطلقوا فى طريق خلقى اشبه ما يكون بالهروب من المناقشة اذ صمتوا عن عيوب الحضارة الحديدية وراحوا يؤكدون امتياز حضارتهم القديمة الامر الذى يبدو تسليما صميا يتفوق الحضارة . ولكن السلوك المكرى لهذا الجيل لا يمحونا الى الاعترافات الضمنية فقد قالوها صريحة وفى عشرات المناسبات وقالوها بدهشة ساذجة وعن عدم فهم وباقتنان ولم يقف ابهارهم عند حد الاشكال الموضوعية للحضارة بل تجاورها الى المظاهر الصعيرة والذاتية حدا فترى الصحفى الاول حسين شريف يلتقط من رحام استقبال حاشد هذا المظهر ذا الدلالة الفريدة فيسرده باعجاب حاشع ومنبهر «وكان حناى القائممقام هيرت بك محتطبا صهوة حواده لياشر بنفسه المحافظة على النظام وقد رأينته بنفسى يرفع عصا لاحد المودعين سقطت منه اثناء مروره بالشارع» جريدة الحضارة - عدد ٥ يوليو ١٩١٩

وعقلية منبهة كهذه لا يمكن ان نتوقع منها سوى الهروب فمع تقديرهم المبالغ فيه حضارة العرب ظلوا عاجزين عن تنيها بدعوى انها تراث انسانى وعالمى ومشاع وحتى اللحظة الاخيرة ظلت بالسببة لهم حضارة اجنبية تقف فى مواجهة حضارتهم العربية والاسلامية فراحوا يرددون بمناسبة وبلا مناسبة اساهم العميق على انحسار ظل الدولة الاسلامية ويتمنون بحوارة ان تعود ايامها الزاهرة حتى ان شاعرا مثل مدثر البوشى اعلن عن امنية جيله الدفينة بان يعود الرمان القهقرى فينشر الموتى وتطوى صفحة الاحياء .

فليت سكن بطن الارض لو نشروا
وليت من فوقها فى رحمة الكفن

واذا كانت البلاد العربية الاخرى قد مارست هذا النوع من العلاقة المربضة مع التاريخ الاسلامى الا انها لم تذهب فى هذا السبيل الى نهاية الشوط فقد وقفوا عند حد الاعتزاز بالعروبة والاسلام والحزن الى ايامها الزاهية كما

اصيقت اليها بغيات اخرى كنقمة الاحقاد الفرعونية عند بعض الكتاب المصريين اما في السودان فقد وصلت هذه النزعة الى ابعاد حدود التطرف وذهبت الى ابعاد غير متوقعة فقد بدأوا يعيشون حلم العودة الى الايام المشرقة - ليس بالخيال وانما بالعمل والمباشرة - فيصل الامر لدى البنا حد اعتزال المدينة وسكنى يادية البطانة وعند المرحوم الطيب السراج يتخذ صورة الحديث بالعربية القصيدة في كل شؤون الحياة كما يروي انه كان يحتفظ بحيمة في بيته ويقتنى حصانا يحوب به شوارع امدرمان المسелنة وسط السيارات والتراموايات وادا عاملنا هذا النوع من السلوك لدى الشيعيين الوقوريين كنوع من التطرف الذاتي البواعث فاما لا نجد عدرا للجبل «بصفة عامة» عن محاولاته الذاتية للعودة الى الايام الخالية - تلك المحاولات التي لا تتحلى في الحين فقط وانما في السلوك فنرى شعراء الجيل الحصد يعيدون تقاليد القصيدة العربية القديمة التي تبدأ بالتنسيب والوقوف على الاطلال كما يعيشون من حديد تقاليد المدح الذي يشد امام الممدوح حربا على سنة الامويين والعباسيين فنرى عبدالرحمن شوقي يمدح السيد على المرعني واحمد محمد صالح يمدح السيد عبدالرحمن المهدي والبنا يمدح كلا السيدين وقام شعراء من نفس الجيل بمدحون كبار الرحال في البلاد من سودانيين ومصريين وانجليز ودبح عبدالمجيد وصفي قصيدة في مدح الملك حورج الخامس .

ويتقمص الادباء شخصية العربي القديم بصورة تدفعهم احيانا الى معالطة الواقع فلا يلمح في انتاحهم اى اشارة محلية ولا نرى فيها شيئا يربطها بالارض السودانية وقد ذهبوا في ذلك مذهبا بعيد حتى اسم صاروا يحورون الاسماء السودانية او يتجاهلوها في اشعارهم العزلية ليشببوا مهند وامامه واسماء وغيرها من الاسماء العربية التي لا وجود لها في السودان

أمامة أنت نور للعين مدى

تشق به العذاهب والظلام.

«الساء»

أسماء ملأى هي الاوانت من هوى

فقد كدتلقى في السفين لجيدا

«عبدالله عبدالرحمن»

لزينب ربيع مليحيك محول
عفا بعدما قد كن بلعيد لهل

«احمد محمد صالح»

ويذهب الشاعر توفيق احمد البكرى مذهباً مماثلاً حينما ينشئ مع مضارب
اياهيين علاقة من الود والتذكار

ياليت شعري هل تعود ليلالى الانس الطويل
ايام تهتف بالفريص ومعيد هيدا يقول
ايام تذكر ذا الفروخ وحوس ثم الدحول
والبشر هيدا صارب اظباب حس لايرول

والى جانب هذا النوع من التخصص للشخصية العربية القديمة (١) نجد
مظاهر الحنين الى الماضى العربى التى يشترك فيها الجيل مع الاجيال العربية
المعاصرة له فى بلاد العروبة الاخرى فنرى المثقفين يحتفلون بالمولد النبوى
وباول العام اصجرى فينظمون القصائد ويصوغون الخطب والمقالات التى لا
تخرج كلها عن الاشادة بالماضى الاسلامى المجيد والتنديد باحاضر البغيض
والدعوة الى تبذ المفاسد والموبقات ويكاد هذا النوع من النشاط يمثل اجزاء
الاكبر من انتاج الجيل الحميد فدواوين الشعراء تكتظ بهذا النوع من الشعر
وصفحات المجلات تفيض به كما تفيض بمقالات مشابهة المضمون

وقد يبدو هذا التطرف غريباً فى صدره من السودانيين بالذات وهم ليسوا
اعرق من غيرهم عروبة ولا احسن اسلاماً ولكن العجب يزول حين نذكر
تلك العقدة القديمة التى بدرها فى احياء السودانيين انحدارهم من اصل
هجين تختلط فيه الدماء العربية بالدماء الافريقية وقد وجدت تلك العقدة

(١) لم يعب ذلك انقمص عند الحدود اللغوية فحسب بل تعداها الى سواحى ادبية فكما طورا
حريصين على تقمص لراث اللغوى كانوا اشد حرصاً على تقمص لراث ادبى وما يجر به من
تقاليد فى لعادة ويحدثنا الدكتور محمد عثمان عن نفسه كفاضى مدسى هيقول «وكنت وان طلق
لقاوم اوعى فى حذر ان يطابق ما سمع الانسان ما حكم به الله خصوصاً فى جر ثم لقن علم
احكم بالاعداد عن شجى ما دون ان ارجع فى هذا الحكم الى بصوص شريعة الاسلامية»
مذكراتى ص ٢١ ولايمكنا ان نقصور عراية هدا السلوك الا اذا ذكرنا ان الراوى كان قاصب
مفروص فبا ان يصبق بصوص قانون عقوبات السودان وهو قانون مكتوب وغير مسموح به
بتحاورة

متنمسا في نعمة الجاهلية بالماضي التي كانت تنظم الشرق العربي باجمعه
 فاستغنوا في اصابة هذين في آن واحد - الهدف الاول هو ايجاد سند حضارى
 يشير في شعبهم الفخر القومى وينقذهم من التسليم والانزاع امام رحمة
 الحضارة الجديدة والهدف الثانى هو تأكيد انتباههم العربى وتثبيته والاثار
 الفكرية التى حلقها الجيل الحفيد تكشف في ثناياها عن احساسهم بوجود
 عقدة الانتفاء ومحاولتهم لارالتها فالشيخ عبدالله عبدالرحمن وضع كتابا عن
 العربية في السودان العرص الوحيد من تأليفه هو التدليل على ان لهجة
 السودانيين لهجة عرصة صافية ومستمدة من صلب اللغة الفصحى مباشرة
 والمرحوم الطيب السراج كـ بلجأ في شعره الى استعراض ثروته اللغوية
 باحساس منهم حتى انه كتب شعرا كهذا

قالوا: استعيدوا مجدكم تحديدا
 لاقى المراد من النصيح مريدا
 قرع للظنايبب اليعطسيب لالى
 يحيون فينا كل يوم عيدا
 شد الحيازيم الكرام ليعبثوا
 بعد للنلى لغة الجدود جديدا
 لغة الحدايح المراحيح الوحاويع
 المصاييح السمك جدونا
 أعنى للمرازية الملاوثة الخلاجمة
 للخضرة الاباة الصيدا

وعبد عبدالرحمن شوقى يمتضج جهارا هذا الاحساس بالانكار فيتحذ من
 البداية موقف الدفاع متحملا عبء الاثبات

فحدث عرمدى النيلس قودا ناددى النيل و عدى الغرب
 بأنا نحمى حسد ومحد لى ما بالخبره مر هف

ويؤكد عبدالله عبدالرحمن على نفس المسألة

كلكم هي اصوله عربى حمعتكم مواطن السودان

والشيخ محمد الامين القرشى يخاطب المتنبي قائلا :

وود سككت السودان عنك فمالهم

أليس ذلهم هاشم وتميم

وللمرء ان يستغرب كيف كان ذلك الخيل يطيق الاستماع الى خطائه
وشعرائه المعنين في التقليدية وهم يكررون على مسامعه كل عام نفس الخطبة
وبفس القصيدة متحسرين على بعداد والاندلس وعدالة عمرو واقدام طارق
بن زياد او كيف كانوا يسنسيعون ذلك التوبيخ المكرور على اصاعتهم مجد
الاباء حتى لينسائل المرء ما اذا كان السودان قد شهد شيئا من ذلك المجيد
العريض واشترك في صنعه او التمتع به وهو القطر الذي انعزل طوال تاريخه
لقديم عن تيار الحضارة العربية ولم يشهد سوى ممالك العويج والصور وذلة
الاستعمار التركي ولكننا نستطيع ان نقدر الموقف بصورة احسن حين نتذكر
تلك الموحة الطاعية من المحر التي تنظم الجمهور وهو يسمعونهم يعترفون له
باصله العربي ويعاملونه كواحد من اساء الحضارة العربية العتيقة وبفصل
تلك اللذة السادية احتفظ ادباء الفترة بجمهورهم وشيدوا امجادهم الخاصة .
ومع هذه المحاولة لاستقصاء البواعث يطل بحثنا ناقصا ما لم نتطرق الى
عامل آخر كان يتحكم في حياة الخيل ويقرر اقداره ومواقفه .

ان المسألة ليست البحث عن مرتكز حصارى فحسب وليست تدعينا
للانتهاء العربي فحسب ولكنها الى جانب ذلك محاولة للهروب - محاولة تشع
لباس الرومانسية اللديع وتحظر في اوهاماها المعطرة صائفة من مهرها الجديد
حبة دائية القطوف واخنة الحديد ليست الحضارة العربية القديمة كما كانوا
يوحون الى المستمعين ولكنها الادب العربي القديم - الادب وحده من دون
عناصر الحضارة العربية التي يذوبون هياما بها

ان فتنة الحضارة العربية بالنسبة لهم لا تكمن في فلسفة ابن رشد ولا علم
ابن سينا ولا كيمياء جابر ولا توحيد العراني وسحرها لا يمتثل لهم في قصور
بعدادو عص الاندلس الرطيب واصالتها لا تتجلى في عدالة عمرو واقدام
طارق بن زياد - لقد عميت ابصارهم عن كل هذا وتعلقوا بمظهر وحيد هو
المظهر الادبي وبقدر ما يكون عمرو وطارق مكمنين ومساعدين لهذا المظهر
بقدر ما يكون لوجودهما ضرورة ولايا منها محبة في القلوب

معهم انهم يذكرون كل هؤلاء بولع متقطع النظر ولكن لا ينبغي ان يحدعنا
هذا المظهر الرائف فتحته بجنىء هيامهم الا واحد بالادب في عصوره الزاهية
ولا يجيء ذكر هذه الاشياء والاسماء الا لاسها مرتبطة بذلك الادب ولانه لا

سبل لي تصورہ ندون وجودها في خلفية الصورة وهذا بالرغم من كثرة المصباح التي ظلوا يطلقونها الا انهم لم يسجيبوا الا لصرخة وحيدة هي صيحة حسين شريف بعنوان «حاحتنا الى كتاب وشعراء» فرعان ما ظهر عشرات لشعراء وانتشعروا والكتاب والمتكاتبين واصبح لادب في طبيعة هوانات حين كله والى جانب ذلك استطاعوا ان يحققوا اعظم انجازهم في محالات البشر الادبي فظهرت عام ١٩٠٣ حريدة السودان وهي حريدة «سياسية تجارية ادبية احتارية» راعية ثم صدرت الرثد عام ١٩١٤ وهي ادبية احتناعية وفي عام ١٩١٩ صدرت حريدة حصار السودان ادبية احتناعية اور الامر وبعد قرابة العاء تحولت الى حريدة سياسية وهكذا طلت صحافة لسود حلال السنوات العشرين الاولى اداة حالصة

ولا اراي مالمالو قلت ان الادب لم يكن على هذا المستوى من الاهمية لاي حيل من الاحيان في اي عصر من العصور فقد اصبح طريق طهارة وحلاص ومهرنا من الوقع المؤلم الذي يهبطهم ثقله النادج وفي عصون الكتابات التي تركوها نلتقي بها بمصيح عن ذلك الفهم القاصر للحاصرة العربية فها هو حسين شريف الصحفي الاول (وربما المثقف الاول) وقد احيل المعترف به) يكتب عن «حاحتنا الى كتاب وشعراء» فيقول (ان الخواث ترشدا وتاريخ يدلنا ان الكتاب والشعراء في كل بلد وفي كل حيل قادة الامم ولشعوب ومفتح قعد لعقوب ولملوب) وها هو السايكب قصيدة يوسي فيها ستاده السوري فؤاد الخطيب الذي دخل معترك السياسة في لسعوديه باحلام كثر ثم عاد مهروما مبدد الاحلام - يكسب فيقدم له الوصية السحرية لتي ظل هو (اي السا) وحيله تتعاضونها بانتظام المدمين

فارجع الى الشعر ولتغم في محاسنه
والشعر يكشف ما يلزم من غمم

ويقول عبدالرحمن شوقي في مقام احتفاء بعودة اول بعثة سودسية الى بيروت

حثموا كالنصر والفتح معا
نشدوا نسي اكل الادب

فكأنما قد فرع السودان من تشيد اركان الاشياء لا يرى وه يبق له سوى
ان يكرس جهده لشيد اركان الادب

اما توفيق احمد الكرى فيتساءل متمنيا

لست شعري هل رى فى هومنا علما نملى عند كئنا
ألم أرى كئنا فى صفا بدسحور القول وشي دهننا

ويعبر عبده عبد الرحمن عن امانى حبله فى مقطوعتين واحدة بعنوان
«أريد» يقول فيها

أريد البلاد نخل الاديب ودمعه بارها الاشهب
أريد الاديب نهر النفوس ويدكى الشعور اذا ماحبا

والاخرى بعنوان «لا أريد» فيملؤها هكذا

لا أريد الاديب ان ينظم واريد الاديب يبنى ويهدم
لا أريد الاديب بلغم الصمت فما كل وقت الصمت يلزم
لا أريد الحفول يحط به الناس وارحو القصيم ان يتقدم

وهكذا يكرس لشؤون الادب حمسة ابيات من مقطوعتين لا تريدان في
مجموعهما عن عشرين بيتا

ومهما يكن من امر فان هذا الولع بالادب العربى القديم هو التفسير لوحيد
الصحيح لتلك التقليدية الممعة التى حأ اليها الحبل الحفيد فى اساليب تعبيره
وحيلته وبالرغم من ان بعض الباحثين (٢) قد ذهبوا الى تبرير ذلك التقليد
بتشابه البيئتين السودانية والعربية فى طبيعتها الصحراوية الا انه قد
فات عليهم ولاشك ان الحبل الحفيد هو اقل الاحيال التصاقا بالبيئة
الصحراوية وانه اول نتاج للمدينة وللحاضرة وان الآثار الصحراوية فى ادبه
وفكره ليست كثر من تأثير وتقليد للادب العربى القديم وكما يقول البنا
«واذا بدا لك فى شعري شيء يتعلق بالبادية فان لمعقة لبيد وطرفه وامرى»
انقيس الاثر البالغ وان شئت ان تلمس ذلك فى اوزان شعري وما رآه الناس
فى كتاب النحلة السودانية من ارحورة هي مقارنة بين حياة البدوى والحضرى
فتي هو درس وصعته لطلبة المدارس الاولية» التى حريذة الثورة ٢٧ يناير
١٩٦٤

٢١ الدكتور لموهبى : احاديث الشعراء فى السودان - ص ١ والدكتور سوسى : لسفر
الحديث فى السودان - ص ٤٢

وبالرغم من كون هذا الاحتجاج باقوال شاعر من الجيل لا يهض دليلًا وحجة على ماذهب إليه إلا أن الدراسة المتبصرة لآثار الجيل الأدبية تكشف لنا بكل وضوح أن البادية السودانية هي آخر ماعر عنه أولئك الأدباء وأن التعبير عنها لا يحتاج أبداً إلى تلك التقليدية التي اتحدوها مبهجاً للتعبير ولكن الثابت أهم ندوا نوعاً من الخنثى إلى البادية وحبائها المبسطة الخالية من قيود المدينة وتعقيداتها والبادية التي تحدنوا عنها بادية غير محددة وهي بلا شك صدى للبادية التي كان الشاعر العربي القديم يمرح في ربوعها

وهذا الموقف الخاشع المتطعم بحال القصة الأدبية مع عرائته لا يستعصى على التفسير والتبرير فقد كان الجيل بأكمله مدفوعاً في هذا الاتجاه بعمول عديدة ومتشابهة كان هنالك نوع الثقافة التي تلقوها وكان هنالك المهضة لعربية الناشئة في مصر والشام وكان هنالك الوضغ السياسي في السودان ومايفرضه عليهم من التحرر والمداواة أما ثقافتهم فقد ظل العصر لعالب عليها العنصر اللغوى والعنصر الدينى فلاول مرة يتم لقاء حقيقى بين المثقفين السودانيين واصول اللغة فراهم يدرسون امهات الكتب العربية (٣) بأساليب علمية حديثة كما يدرسون الفقه والشريعة بصورة موسعة واكثر تقدماً من اساليب الازهر القديم ولذلك فان هذا الجيل هو اكثر الاحيال معرفة باللغة والدين وهو الجيل الوحيد الذى اطلع في تحريج علماء لغة مشهود هم من اجميع وعلماء في الدين لايقولون علماء عن رصائلهم في مصر والشام وكان بإمكانهم ان يكتشفوا هذه الحقيقة بعقد اذنى مقارنة بين معرفتهم ومعرفة الجيلين السابقين وهي عملية لاند اهم قاموا بها وتيقوا من نتيجتها فعادوا باطمئنان ممزوج بالخسرة على ذلك العلم الغرير المضيع ولاشك ان مفكرى الجيل وقادته كانوا وهم يحلمون بعودة الماصى العربى بأيامه الخافلة بتحيلون انفسهم في ذلك الماصى ادباء وشعراء لامهندسين واطباء وهذا مردود الى ان الاستعمار لم يحاول تزويدهم بالحاج العلمى الحاد من ثقافته مكتسبة تنقيهم مبادئ اللغة الانجليزية التي تكاد ان تكون نصيبهم الوحيد من ثقافة العرب ولم تمكنهم تلك المبادئ من أى لقاء حقيقى بسلك الثقافة

(٢) دويت كى متلقاه في كلية عردون على يدى طاحل الاسانده المصميم مثال مسيح وبعمرادى وعد برؤوف سلام وقول انصليب ولجداوى وعجهم وما كان معمر لك من كند مثال اضاء علوم ادبى للعراى وانكمن بغير. وما في مسواهماء مذكرادى لدردرى محمد عثمان ص

الى جانب هذا كان هنالك النهضة الادبية في مصر والشام والتي كان صداها يتردد في السودان وبقية الاقطار العربية فقد شهدت تلك الايام امجاد شوقي وحافظ ومطران وعبرهم من رواد النهضة الادبية في العالم العربي وكان الشرق كله يركز على انتجاراته الادبية القديمة ويقف موقفا من الفخر والمبالغة حيال رواده احدى الدين كانوا بمثابة مطهر من مظاهر الانتصار القومي وهذه الصفة قولوا بتكريم بالغ على اساس اهم حملة التراث العربي ومجديده وقد تأثر الفكر السوداني بهذه النهضة الجديدة المحفوفة بكل مظاهر التكريم والخصاوة ورا- تأثر حتى رواده اكثر مما يتأثر الاساتذة القدماء الذين اخذوا عنهم وهناك سطور فردية لهذا التأثير تتحلى في تقليد مدثر البوشى لشوقي في همزيته عن السيرة النبوية جريا على نهج الوصيري، وفي قصيدة البناء عن عثمان بن عفان والتي تذكر بعمرية حافظ ابراهيم بشكل قوى ولكن المظهر الجماعي والاساسي للتأثير يبدو في تركيز الحيل كله على مسألة العودة الى عهود خلاصة العربية الراهية وتباكيهم على صيغة الاسلام واللغة العربية ومهما تكن المؤثرات الثقافية من القوة والتمود فاما وحدها لا تفسر الوضع العام للجيل ولا تبرر اتجاهاته السلفية ولكنها تنضام مع الوضع السياسي لتعطينا صورة عامة عن دوافع تلك الاتجاهات والوضع السياسي يومئذ كان اشبه بالاختناق كان هنالك حكم احنبي حديدي القبضة يحيا بذاكرة مفتوحة على هبة السودانين بقيادة المهدي واهاق الوطنية والحماس التي يمكن ان يرتفعوا اليها وكان هنالك حرص من جانب الاستعماريين على عزل السودان عن مصر وكماحها السياسي في العشرينات الاولى من القرن العشرين وكانت السلطة بعد تحربتها مع المثقفين المصريين تنظر الى جميع المتعلمين بحذر وقلق وتتخذ من اساليب الخيطة والتوقي ما تصمن به تقليص اظافرهم النامية وفي هذا الجو من التربص لم يكن بد من التعمامي هن الواقع والتعلق باذيال الاحلام المدبرة فرى الجيل يكتب في المسائل السياسية او لاجتماعية بحذر وحياء مستعملا في ذلك اسماء تنكرية كانت من الكثرة بحيث تثير الدهشة فكان هنالك ابن السودان وابن رجاء وابن حلا ورهير ويس وطويجي وابن الشعب وح ش وكثير غيرهم وحتى في مجال المناقشة نجدهم يتحدثون بحذر وفي الخفاء ويحدثنا الدرديري محمد عشماني (مذكراتي) عن جماعة من اصدقاءه كان يجتمع هم لمناقشة الشؤون العامة وكان لقاؤهم كل مرة في بيت واحد منهم ولكنهم كانوا يعتقدون «هذه الاجتماعات

تحت اسم جمعية ترقية الاكل البلدى عملا على التعطية والتوقى ليطن الرقباء
اننا نجتمع لاكله شهية فحسب وهم لا يدرون ما يدور بعدها من حديث
وبقاش، مذكراتى ص ١٢

وتحت هذه المراقبة الصارمة فقد الجيل كل مقدرة على الرؤية السياسية وطل
حبس احلام عامضة لم يصح منها الا على الرحة العيسة للتي صبحت الحرب
العالمية الاولى ففتح عيني لم تألفا الضوء ورأى عالما من النور والشعاع لم
يساعده على الرؤية وانما جهر بصره واغشاه

لقد شهدت السنوات الختامية للحرب نشو الوعى القومى لدى الجيل
الحفيد وبتأثير تلك الحرب وبريادة عدد المتعلمين متحالفين مع لطفه
الوسطى بدأ ذلك الوعى يعبر عن نفسه بطريقة عشوائية وساذجة فبدأ
الخريجون ينظمون صفوفهم يرفعون صوتهم قليلا قليلا ففى ١٨ مايو ١٩١٨
تم افتتاح نادى الخريجين وبعد تسعة اشهر من ذلك التاريخ ظهرت جريدة
الحضارة وهى اول جريدة سودانية (لحما ودما) وبرعم ارتباطاتها التمويلية
وميلها الواضح الى محاربة الانحليز الا انها بلا شك كانت مطهرا من مظاهر
اردياد نفوذ الخريجين وتدعيمها لوضعهم الاجتماعى كما شهدت تلك
السنوات انشاء الصندوق الاهلى الذى كان موحها للاعمال الخيرية وتطوير
التعليم الاهلى وبجانب كل هذا ظهرت دعوة قوية الى التعليم ترى فيه
السبيل الوحيد الى النهوض بناء على اقتناع مسبق بان ازمة البلاد هى فى
الاساس ازمة جهل (٤) وقد سبق ان رأينا حسين شريف يؤكد ان الاستعمار
ضرورة لا بد منها «لان كماءتنا الذاتية تبعد بنا فى الوقت الحاضر عن حكم
انفسنا بانفسنا» ولكن الربط المباشر بين التعليم والاستقلال لا يظهر الا فى
كتابات ثوار ١٩٢٤ ..

ان الوعى القومى يبدأ من هذه السنوات ولكنه يظل بالنسبة لهذا الجيل عائم
وعبر محدد المعالم حتى يأتى ثوار ١٩٢٤ فينصح على ايديهم بصورة افضل
وينفجر فحاة كالقنبلة الرمنية فى عام ١٩٢٤ ولكن دور الاحقاد الاساسى
فى صياغة ذلك الوعى يتحلى فى بدرهم بدور ذلك التحالف الوثيق الذى قدر
له فى النهاية ان يحلى المستعمرين وان يحكم البلاد تحالف المثقفين والطبقة
الوسطى ضد الاقطاعيين ورعاء العشائر والطوائف واذا كان من الممكن

(٤) نعت البلاد من اعيان وقلة التعليم مطلعا مرريا محلى ان صفى الحروف اسود اسير و
مطابع لصحف كانوا يمين ولكنهم مع ذلك بصغور. سوق الذكريات سليمان كشه ص ٢٣

اعتبار قصيدة من الشعر نقطة في الزمن يؤرخ على اساسها فان قصيدة البنا النبوية الشهيرة هي النقطة التي بدأ منها الهجوم على معازل الاقطاع وانتزاع السلطة القيادية من يديه وتسليمها للطبقة الوسطى بمتعلميها وتجارها يهجم البنا على الطبقة الاقوى اجتماعيا فلا يترك لها عيبا الا ذكره رلا شلبة الا اوردها . .

والناس في القطر اشياء ملقعة فلن تكشف فمن صعب وعن هوس
فمن عني فغير هي مروعة ومن قوى بصعب النفس موهوس
ومن طليق حبيب الرأى مفصص فلعجب لمنطلق في الارض مسجوس
واخر هو طوع البطر يبرز في زى الملوك واحلاق البراذين
وهيكل تبعته الناس في سرف كالسلمى بلا عقل ولا ديد
يحتل بالدين للدنيا ليجمعها سحتا وتورده في قاع سجين

وإذا كان الشريف الهدى (٥) قد تسرع واشتكى البنا بحجة انه هو المعنى بذلك الهجاء اخذ فانه لم يكن بعيدا جدا عن الصواب فمع ان الشريف لم يكن هو المقصود شحوصا الا ان طبقة كلها مقصودة بذلك الهجوم ولو كان للطبقات شخصيات اعتبارية لكان من حق الطبقة الاقطاعية ان تشكو البنا لانه قد هجم وسبها واثان سمعتها
ومن الناحية الاخرى لا يهمل البنا مهمة الدفاع عن الحلف المقدس فنراه يتحدث مدافعا عن مصالح الخريجين ومصالح التجار وهم العنصر الاساسي في الطبقة يومئذ وفي كل وقت:

يا لمة جهلت طرق اللعلاء فلم تسبق لغلبة معقول ومخزون
فللمدارس هجران وسحرية وللمتلخر صعب غير موزون
وللمفسد اسراع وتلبية ولا للفقاع لمعروض ومسون

وبهذه القصيدة الهامة يفتح البنا صفحة جديدة في تاريخنا الوطني فقد جاء من بعده رجيل كامل من الشعراء والادباء الذين صبوا غضبهم وسخطهم على رأس الحيل الوالد واصبحت العرائم (رمر ذلك الحيل) لا تأتي في شعرهم الا مقترنة باقبح الاوصاف والنعوت وقد ظلت هذه النغمة تظهر وتحتس في مناسبات متعددة ولعلها لا تزال تواصل ظهورها حتى في عصرنا الحاضر ولكنها

في جميع الاوقات تدبر للبنا وقصيدته الرائعة واد كان حيل احقاد الهزيمة
ممنخرة يواجهون بها لاجيال فهي ما قاموا به تجاه هندسة ذلك الحلف الذي قدر
له ان يقرر جميع اقدار السودان في المستقبل

انه من العسير حقا ان يعطى المرء ملخصا ماهيا عن هذا الحيل خاصة ذا
انتهى الحديث عنه الى اعوام ١٩١٩ - ٢٠ و ١٩٢١ لانه ابتداء من تلك
الاعوام يصبح صعبا جدا الحديث عن اولئك الافراد كحيل فهم من ناحية قد
تعرضوا لانقسامات متعددة بحيث اصبحوا اكثر فرقة وحلafa من ان يصحوا
حيدا موحد لاهتمامات ومن ناحية اخرى حسروا وبثتهم الكرى عام ١٩٢٤
فاستمر ذلك الحدث عن اعيال (مادى وفكرى) لعدد صحم من افراد الحيل
ومن ناحية ثالثة واحيرة كان برور الحيل انتفى سريع وقويا بحيث تحولوا (اي
الاحقاد) الى طلال واتباع وتشريعاتية في الحيل لئلا ينتهوا بطرق تدعو الى
الرناء ولا يمكننا ان نتصور معنى هذا المول الامتاعة الحيليين القادمين

الوثبة - ١٩٢٤

ليس من وصف منع تعبير عن ثورة ١٩٢٤ اسودانية، من وصف الوثبة فقد تجمع تحت لثوره كل حصائن الوثبة بما في ذلك عصر المادعة والظفرة وعدم الأكس. وكان قد بدع الوثب، وقوة انطلاقه، ومقدوره على الاقحام والمصادمة. وكان قد نص جهل وثبته ينظره في نهاية تحليفه القصير، او على الاقل فيه احسنه بسك لدى ينتظره. فعلى حين عرة اقلعت احدهم نفسها من وهذه لياس و حدلاب، وهت لتوجهه للاستعمار صرابة مباشرة كصعده برمع وفسد بجمع نفوى الوطسة، وسكمل صحوه، كان كل شيء قد ح. ومعجزة قد تحققت بعد طول اليأس والقنوط. وكما ب الوثوب بوحى بالعترة والسفطة و بوقوع كسيحة موقعة وملازمة، فقد وثبت لثوره كسرس الخامخ، لهبط في حديق اهريمة امتد على احاب الاحر وبمضى حسمها بالرصوس وكسور

ان معنى الوثبة يزاد جلاء حين يتم لماه محملا بطروف الوضع لدى سقمها وعاصرها في السودان، فكثيرا كان مشغول بصيرموب لثوره عدمه شسه ما يكون بخدم وكذا. سر. عن ذلك لثورة باشه علاقات غير معادة مع الاتحاد لاسلامية القديمه وكان الوعي لسياسى يروح تحت اطفال فادحة من اشعور بالامتنان تجاه المستعمرين الذين ادخلوا على البلاد مظاهر حصارة سطحة وجمعوا في قصصهم الحسانية عه الامن والبطا في المجتمع ونفصل هذا الشعور اشتركت البلاد في الحرب العانة الاولى حسا الى حب مع بريطانيا وحلفائها ووجهت كل طاقاتها ومقدارها الى تعديه ومدد جهه لاستعمار خربى. وفي تلك الفترة شهد لبلاد مظاهرات، الولاء التى جمعت من عمار لبلاد ووجهائها تعصدا بوقف بريطانيا في البلاد وبعد الحرب ذهب وفد من قادة السودان الروحاني لتقدم بانهة ذلك الانحلال بماسية الانتصار. وبعاب كل هذا كان هنالك جهار الارهاب وعطادة الذى يعود قسم لمحاربات في حكومه الاسعمر الانحيرى بالسودان وكان هناك جهل والتخلف شكرى بضع لدى نعيه اخيه وكنت همدت سيادة الاقطاعيين ورعيه العشار وبصوت على المجتمع وبوجههم ياه الى

ما يحقق مصالحهم الطبقية المرتبطة أوثق الارتباط بالنظام الاستعماري القائم في البلاد

في هذا الجو المظلم المصاد بدأت الطلائع الثورية عملها في السودان وبكى
بنصح لنا الى اى مدى كان هذا الجو مضادا ومعاديا ينبغي ان نذكر ان اولى
خطوات الثورة تمت كرد فعل لاحتجاج عقد بدار السيد عبدالرحمن المهدي في
١٠ يونيو ١٩٢٤ والذي قرر فيه المجتمعون من الاعيان والكبراء ان يطالبوا
بانهاء الحكم الثنائي على ان تتمرد بريطانيا بالحكم دون مصر كما كانت
جريدة الحصار تنشر مقالات مثيرة في نفس المعنى مطالبة بحل «الشراكة»
واخراج المصريين منها مع بقاء الانجليز سادة ومعلمين للشعب حتى يقوى
ساحده ويتمكن من حكم نفسه بنفسه وهكذا انفجرت الثورة في جو معاد
ولى لحظة كان فيها الاستعمار في ذروة قوته وحروته والقوى لوطنية في اسوأ
حال من التشتت والحلف وانعدام الوعي بعبارة اخرى انفجرت لثورة في
لحظة توفرت فيها كل عناصر الجريمة وتضافرت صدها كل الظروف لا لتعوق
سيرها فحسب بل لتحتفيها في المهد ولكن الثورة انفجرت بالرغم من كل
ذلك.

ويحق لنا ان نتساءل كيف تم هذا وبأى باعث ولاية عاية وما هي العوامل
التي جعلت من هذه الثورة حثما مقصبا قدرا واقعا في مجتمع متحلف
ومزق ومقهور؟

هنالك حقيقتان تساعدان على تدوير هذا الوضع وارانة عصر التناقض
الذي يشتمل عليه. الحقيقة الاولى هي ذلك التحالف الوثيق المعرى الذي
نشأ بين المثقفين والطبقة الوسطى الناشئة في البلاد وخاصة في المدن والتي كانت
تصانئ من قسوة الاستعمار ومنافسة تجاره الاحانب وحلفائه لاقطاعيين
والتي تحملت ويلات المجاعة والعلاء عام ١٩١٤ وويلات الحرب خلال
اعوام ١٩١٤ - ١٩١٩ وحرحت من كل ذلك مهوكة مضعضة ولكن بعفلية
شديدة الطموح وقد استطاع المثقفون بروحهم الانبعاث ان يرتضوا
فضايهم بقضايا الطبقة الخليفة وان يعرفوا عنها احسن تعريف في مذكراتهم
المطلبية التي كانوا يرفعونها الى المسؤولين من حين الى حين ففي عام ١٩٢١
كتب على عبداللطيف مقالة نارية كان اهم بودها (فيما يروى الاسناد حسن
نجيله نقلا عن السيد احمد فهمي الريح مدير حريدة الحصار) كالآتي
١/ زيادة التعليم

٢ / نزع احتكار السكر من يد الحكومة ووصمه بيد التجار

٣ / الوضع في مشروع الجزيرة

٤ / اسناد بعض الوظائف للسودانيين

ولم تر المقالة النور فقد اعتقلتها سلطات المحابر قبل نشرها وحوكم البطل على عبداللطيف بسببها بالسجن لمدة سنتين ونزعت رتبة وبياشينه .
وفي عام ١٩٢٢ أصدر على عبداللطيف وزملاؤه نشرة سموها «مطالب الامة» وتكررت فيها نفس المطالب - مطالب المثقفين والتجار واصيبت اليها امور عامة عن المزارعين والضرائب وحين اشتعلت الثورة بالفعل كانت الشرارة الاولى مضامرة في اندرمان قادها وبدأ الحثاف فيها التاجر عمر دفع الله فكان بذلك ول من هتف هتافا سياسيا في السودان . وخلال الثورة ظل هذا التحالف يقوى ويتغذى حتى انه في نهاية المطاف كان المسجونون السياسيون جميعا من ابناء الطبقتين الحليفتين .

اما العامل الاخر الذي عجل باشتعال الثورة فهو تأثير المثقفين السودانيين باحداث ثورة ١٩١٩ في مصر . فقد كانت طبيعة الثورة المصرية تستدعي استجابة عنيفة وكانت طبيعة المثقفين السودانيين احمالة والمشبعة بالمواطف العربية الاسلامية تعدهم احسن اعداد لتلك الاستجابة العنيفة . اما الثورة فكانت حدثا رائعا ملهما . كانت هبة شجاعة وقف فيها الشعب المصري الاعزل ليواجه ببسالة نادره طغيان الاستعمار الانجليزى المنتشى بخمور الانتصار في حرب عالمية وبمحمد الامراطورية التى لا تعرب عنها الشمس . وكانت مرتبطة اروع الارتباط باسماء اكثر الشخصيات الثورية حلالا في الشرق العربى مصطفى كامل كتاريخ وسعد زغلول كقيادة . وادا تذكرنا ذلك الارتباط القديم العميق بين الشعبين المصرى والسودانى فان هذه التأثير

وبفعل هذين العاملين استطاع جيل الوثبة ان يشعل ثورة عاتية على النطاقيين الشعبى والعسكرى متحديا كل الظروف المضادة والمعاكسة ومنذفعا اندفاعا رومانسيا لا نملك امامه الا التأثير والاعجاب . ومهما يكن من امر هذه الثورة ونتائجها فهي بلا شك فاتحة الكمّاح السياسى في السودان وهى درس الشعب الاول في التصحية والثبات واول مذبج للحرية شيد في البلاد وقدمت عليه بسخاء فريد اروع القرابين والتضحيات .
وبالرغم من ان ثورة ١٩٢٤ كانت ثورة سياسية الا انها مع الاسف لا تقدم

والاحجار الاحلاقى لوحد هذا الخيل هو حروجه عن طاعة اخیل الوالد
 لا مؤرسة عبر مكتف بالعصا بل معلما المحوم بعد ان ينس من صلاح
 امورهم وعودتهم الى طريق الرضية لصادقة ولا شىء وجمع من سحرية
 صالح عدانقادر في هدين ليس الندين كى على عبداللطيف بصعها في
 صدر مرله

الا نهد قوسى او اخرى رحل الشرع صاروا كالصغير
 الا نيب اللدى كذب حشيشا فتعلقها حيول الانجليز

وعصه مدر لنوشى لمصريه النجمة الالط

نقال رحال لا وركب انهم حديرون حفا ان يقال القواظم
 بقوسى لب فعل لميل لافها واند الى الاعاء نعم اللهم
 فم روع العلباء الا عمائم نسلاوم فينا وهى فينا سوائم

وهو خطب من هو هذا الناور المخرج ائدى يقدمه لامتاد عيب
 عبدالنور في شعر شعبى

ب كدر البلد الامير السكات دا نصم لامتين
 نيو لنا الرانى المنير الكنم هسم مشين
 ماننشوقوا العفر اللعين والعربا المتشديلين
 وال بيبكو والصارير والرزيا بنروح متين
 ماننشوقوا الد والقوق مص دمننا وعقب امنهال
 عمونا وحفظوا الامان بالناسيت والخيروزان

وعلى كل فـ هذا الاحجار الواحد ليس قليل لاهمة فمد ان قام النوار
 باحروج على طاعة اخیل ابولد بصره لانكارهم سياسة اصبح محال لممل
 الساسى مؤمنا ومعرولا عن دقائق الاوضاع لعائلة وعلى ايدى الاحبال النالية
 ظل هذا الوضع يدعه ويقوى ويصح حنا واحا للخیل الاس ان لا تلى عليه
 ارادة اخیل لآب في محب الفكر الساسى ومهم يكن مستوى هذا الوضع من
 الشرعة في عصر الحاضر فأننا بلا شئت ندين به للمحدولة الاولى من حاب
 النوار.

وبعكس هذين المجالين (السياسي والاخلاقي) يبدو أنجاز الثورة في المجال الثقافي واضحاً ومتميزاً فقد انجبت الثورة ادباً يختلط فيه التجديد بالتقليد وتتلاقى فيه اصدااء جبران بشوقي والمنتبى ولكنه يظل مع ذلك خطوة واسعة الى الامام اذا ما قورن بادب التيار الاخر ولا مجال للمقارنة اطلاقاً بين انتاج البنا مثلاً ونتاج توفيق صالح جبريل - ليس في المضمون فحسب وانما في الشكل الفني ايضاً. ومن الناحية الاخرى لا لقاء اطلاقاً بين نثر الامين على مدنى من جهة وحسين شريف من الجهة الاخرى ولا لقاء ايضاً بين افكار الامين على مدنى النقدية وافكار غيره من المتضوين الى تيار الانفصال عن مصر فهو لا يقر تقليد المتقدمين مهما كان علو كمهم في الادب ويرى ان تقليد المحدثين اخف وطأة واقل ضرراً وان كان الامر في نظره من الشروع التي يجب تفاديها. وهو لا يعتبر شاعر التقليد شاعراً ولا يرى في نظم البنا اى عنصر من عناصر الشعر ويعتبره تقليداً باهتاً ومسحوا مشوهاً

وقد حفظ لنا التاريخ قليلاً جداً من الكتابات الثرية التي خلفها الثوار ولكن بمقارنة هذا القليل مع انتاج التيار المناوئ نجد فرقا ظاهراً في الاساليب. فالثوار ينتهجون لغة لا تعمل فيها ولا تكرر وواضح انها تستهدف الالفهام بلا زخرف ولا بهرج. فمثلاً جاء في احد مناشير الثورة السرية:

«اخوانى لقد سار الانجليز على سياسة التمريق بين المسلم والقطي بمصر زمنا طويلا واقاموا الفتنة في البلاد وقد حل بالمصريين الشقاء والتعاسة كما لاحظتم ولما اتحدوا واتفقوا نجحوا وابدهم الله فان يد الله مع الجماعة. وهذا درس نافع لكم يجب ان تصعوه نصب اعينكم وتتحذوا مع اخوانكم المصريين حتى تصلوا الى غرضكم من الاستقلال التام، فهذا حديث لم يقصد كاتبه الى تحليته باى حيلة لغوية وكل بلاغته تنحصر في بساطته الشديدة ومقدرته على الالفهام واذا كانت هذه القطعة لا تدل على معرفة عميقة باللغة او تطويع كامل لها فانها شديدة الدلالة من حيث كونها تشير الى خروج عن طاعة اللغة وتحمر من سحر الكلمات وكاتب هذه القطعة لا تقوده اللغة وانما يقودها محتر اقرب الطرق واسهل القعاير ليمر هن معناه ولكن حسين شريف مع تمكنه من اللغة ومعرفة بدقائقها يظل اسيراً لمعرفته تلك فيكرر ويروق ويحشد المترادفات ويبنى للمجهول بالرغم من انه من اوليات الكتابة الصحفية ان لا يبني الكاتب على المجهول «على ان الامم ليست بقطعان من الاعنام يتشارك في رعيها ولا باسراب من الحيوان يتعاقد في ملكها وانما هي جماعات من البشر كان الاصل

فيها ان تكون ولية امرها وحاكمة نفسها ثم قصت عليها احوالها ان تكون في درجة تحتاج فيها الى ارشاد فيجب ان يتولى ذلك عنها سلطة واحدة تحسن القيام بالمهمة لا سلطتان او سيادتان ولو كانت الدلائل والوقائع والتحارب تساعدنا على الوثوق بان حيرتنا يستطيعون الاحتفاظ بوديعتنا الوطنية المقدسة لما فصلنا غيرهم وما اخترنا سواهم اما والامر كذلك فمن الخرق والحمق ان نقرر بانفسنا ونقامر بكياسا ونقذف بمستقبلنا في هوة لا قرار لها ولا يعلم الا الله ما في حوقها المظلم من المصائب والويلات فلم يبق لنا اذن الا باب واحد هو الانكليزية .

وهذا الاختلاف بين الاسلوبين يبدو نابعا من تنوع مصادر ثقافة النيارين فعلى حين يركز الثوار على الثقافة العربية المجعدة الواردة من مصر نجد التيار الاخر يركز على الثقافة العربية القديمة التي تلقاها في المدرسة بصورة موسعة وفتش بها ايما افتتان ولكن الثوار بالرغم من ذلك لم يذهبوا في التجديد الى مهابة الاشياء واحتلظ في ادبهم الحديد بالقديم بحيث اصبحنا نجد القصيدة جديدة من ناحية المصنوع قديمة من ناحية الشكل او نجد لدى شاعر من الشعراء صور جديدة منكورة تتلوها صور تقليدية محنطة في نفس القصيدة . وفي هذه المقطوعة لخليل فرح تنطق هذه الحالة انطباقا تاما فيبدأ هذا الشعر الحديد في مبناه ومعناه :

وقف عليك وان دأيت فؤادي	سبل قربي هي الهوى وبغادي
يا دار عتكني ومهد صلبتي	ومثل لهوائي واصل رشادي
كم هي سمائك للنجوغ وهي ثرى	واديك كم للعبقرية وادي
لك كالطبيعة هي الحمائل روعة	وعليك من سحب الجلال هوادي
ايه قديتك يا بلادي الهى	من حاصر بين القلوب وبادي
فعلى كلا الحالين بحر وذائع	كودائع لك هي السحك عوادي

ثم يتقمص فحاة اهاب الشاعر القديم داعيا بالسقيا وممتخرا باسلافه الزهر الوجوه المعتدلين كالرماح

رعيا لاء قضا شوقا وما	حوت عليهم مك بيص ايادي
واعى الربيع وهي ربوعك فتية	كلوا بطلعتهم ربيع البادي
زهر كل وجوههم من بلبها	زهر الكواكب للعيون بوادي

ابناء يعرب حيث مجد ربيعة وبنو الجزيرة حيث بيت اباد
متشابهون لدى العراك كلثما نبئت رملهمو مع الاحساد
مالدا يقول المرجعون وكلنا فى الله والاطن اهل جفاد
اصحاب ملقة ولسرة منزل منتلج بلدية وقتية وادى
هدى ديارهم وتلك ربوعهم فسقى ثرى ولديك صوب عهاد

ولدى مدثر البوشى نجد الوصح الاحمر المعنى الحديد فى صياغة تقليدية
لقصيدته :

سلام على الدين الحنيف وقتيه
على عهدهم ترعى الدهى والمحارم
تبدل ملصبا ولم تبق سنة
وصار لنا مما نعد المواسم
اذا شئت يا ذلت للثغايا فتساهدى
ببيك على مر الليالى فههم
اعاروا وقد انحدث لما تحولوا
عن العهد واستولى القياذ سواهم
فبيناهم الامر والعرض سالم
اذا بهم يعصون والانف راعم
يفال رجال لا وربك لهم
جديرون حقا ان يقال العواظم
بعوس لبث فعل الجميل لاهلها
وأيد الى الاعلاء نعم اللهارم
فما روع العطياء الا عملهم
تسلوم فينا وهى فينا سوائهم

ويتكرر هذا الموقف حتى فى من الغناء فنجد نص الاعنية نسخة دارجة
للقصيدة العربية المصبحة وتراوح بين المعانى التقديرية والمعانى المستكرة وبين
الالفاظ والاساليب الجديدة من ناحية والاساليب النديبة المعروفة عن الادب
العربى المصيح من ناحية اخرى فها هو الخليل يحشد فى قصيدة عنائية
باللهجة الدارجة تعابير مأثورة واسماء عربية صار ذكرها فى الشعر تقليدا ثابتا
كأنها لا يوجد غيرها فى اللغة.

اسودها الصلابة ام حياك دف كاسى وفل لى حياك
يومنا صافى وحلقى الصلابة ب دديم كيف مرحم الشداك
بحر حيد فصد الصداك دف دور المورده ام عاب
بيك مشرع حوله وريف وديك بيوتر نحت الصداك

وينحأ الى اسديع فى اعية اخرى لئلى هذا احساس الماقص

ينيد نامل الحدا حياك الحدا

نم فى اعية ثالنه بلى بهذا احساس النام

سبه دله فى الدلال ماضى هل قداسك حينا الماضى
فوف صديقه فلى كم ماضى ماضى لحضك الماضى

محا بشر عبد الرحمن اى اعانه لثأورة فى اعية

واسد البدر من سايكا وحدى النحل من لعاكا

وسكر هذا الموقف لدى جميع شعراء المرة لعانيين وعندما تبدأ الهبة
لغة في بعد يصح هذا الاعاء بتليدا ثانيا حتى ان بعض الاعلى ما نسميه
ليوم حقنة لس «يسعصى أول الأمر على السامع ويحتاج الى التفسير وقد
يسهم هذا بوضع في بصليل المرافق حتى بطقه بمثل هذا القول «لقد سمعت
في لسودان من شعراء لشعب قوما بطقون لعامة الناس ما لا يدركه في غير
السودان الا المتدرب المتوفر على دراسة اللغة فهو بشد للباس لغة عامية
محدث عن اشاد والاسد ولرحال والمبار وما أطن عامة شعب عربى
احر تدرى هذه الانماط معنى محمد فرند المحدث في مقدمته لديوان
العاسى

وذا كات الوثبة قد حلفت للشعر العمانى ببلده الا ان فيها قد حلق
الاعنة خدثة نفسها في لاساس ووهنها وحودها الاور وقيل الوثبة لم تكن
الاعنية بصورها احدثه معروفه للمحبه وكان يحتل مكانها لعاء الجماعى
والظنور فلم حاءت لوثة حاءت معها اولا بموهبة عانة فريدة هى موهبة
الخليل الذى يهف حتى اسوم قمة في حن الف وحاءت معها ثانيا بالاعية
السبسية اسى لقب دموع لا تافسها فيه حى اعانبا الوطنية المعاصرة وعلى

انغام «يا أم ضماير قودى الرس/ واهتفى فليحيا الوطن» حررت مظاهرات الشعب ومظاهرة طلبة الكلية الحربية ومواكب العسكريين المسلحة التى اصطدمت بجيود الاستعمار فى قلب الخرطوم عام ١٩٢٤ ولكن الاعبة كان من الممكن مع ذلك ان تضى على الاساس الجماعى التقدم لولا ان تدخل فى الامر عوام لشوار (كحرة من الحبل الحفد) بالحصارة العربية لقدمية ومحاولهم لاحيائها ومسنرشدين باحار الخلفاء والامراء وصلوا الى نتيجة هى ان العناء العربى يسمى ان يكون سماعا وليس اشتراكا فى الاداء ومن هنا براهم مهجرون الاعبة الجماعية السودانية وفى حلقة ادعاهم ان السماع اقرب الى الاصول العربيه لذلك الت وبالى اوفر اصالة وبلا

ولا تقف جهود الثوار عند هذا الحد فقد كانوا يولون لصور عامة اهتماما خاصا لاشد انه باع من طبعة ثقافتهم الادبية الحاملة فترى عرفات محمد عبدالله (احد قادة الثوار) يشترك فى تمثيل عديد من التمثيليات ويشتهر بالاحادة ويعرف ان الطل على عد اللطف كان يشترك فى الاحراح ويجهر الاربيد والسيوف للمثليين وعلى كل فان ثورية هذا التيار الرمت بمواقف اكثر تقدما فى جميع المجالات فحدهم اشد الناس اخاحا على مسألة ارياد التعليم واشدهم فيها اذ اسم استطاعوا ان يكتشفوا العلاقة الوثيقة بين انتشار لعلم وانتشار الوعي السياسى كما اسم فى طبعة المدافعين عن تعليم المرأة وبالرغم من ان السار الاخر اشترك فى هاتين المعركتين الا انه لم يكن محدد لموقف ولا محدد الدوافع ففى مجال التعليم براهم يكررون المطالبة به ومدحه ولكن دور هدف محدد ونزحر دواوس شعراء الخيل الحفيد بقصائد خصص على التعليم ولدمر من الجهل ولكن الرطب بين انتشار العلم والتحرر لوطنى لم يكن واصححا كما تدل على ذلك الامثلة

يقول عبدالله عبدالرحمن

وانى رأيت الجهل الام صاحب
واكثر ما يولى الشعوب ركودا
ويقول محمود انيس:

عبددوا ظلمات الجهل واتحدوا
وحاذروا من خلاف بينكم نجما
ويكتفى حسن عثمان بدرى بالتدبر:

أشياء لو بطرت عيناك لصعبرها
أثرت حب العمى عن رؤيه المفل

جعل مقيم واخلاف مقسمة بين النفاق وبين الغدر والحفل

ويمصح السنا اكثر حين يربط بين التعليم والمدنية - المدنية وليس الاستقلال

ثم انشروا من شريف العلم انفعه
فلما هو معنى كل تمدين
العلم زين ولاخلاق رفعته
ان قرنته يد في خير تربدين

وفي هذا يلتقى البنا مع احد قراء الحصار في رسالة له نشرت عام ١٩١٨ وذلك في قوله «بديهي ان انتشار التعليم بين افراد الامم هو عنوان سعادتها وارتقائها ولما كانت هذه هي العاية الوحيدة التي نرمي اليها رأينا الخ . . «فالامر بالنسبة لهم تقليد اعمى لمظهر من مظاهر الحصار الغربية ولكنه بالنسبة للثوار شيء اخر فقد كانوا يعرفون ان العلم مهم لكل الامم وان العلم يتماوت من ناحية النفع والصرر فهناك ثقافة ضارة صارة لا يرغبون فيها هي ثقافة الاستعمار وهناك ثقافة حيدة يرغبون فيها ويعتقدون ان مصر سهلها الاول ولذلك نراهم يهربون شاسا منهم الى مصر ليلتقوا الثقافة الوطنية المتحررة رعبا عن انفس الاستعمار الذي اقام في وحوهم العوائق والصعاب .
الاحسة الكرى للثوار تجلى في تحليلهم عن الاعجاب المنبهر بالحصارة لغربية وتمكهم من استشعار عنصر الاستغلال والقمع الذي تنطوي عليه بالنسبة لشعبهم فلا نجد عندهم التقليد الاعمى ولا الخيالات النظرية . ويتجلى هذا الموقف الخصب في معركة تعليم الفتاة التي بدأها الشاعر عبدالله محمد عمر البنا فلم يناقش الموضوع على صعيد انساني او اجتماعي وانما لحا الى اسلوب انتحيب والترعيب فليس هجوما صاريا على النساء الجاهلات كأنها هن المسؤولات عن جهلهن :

واحر سبيل للحفلات فلما	بالحفل تمتلئ للبلاد ونحرب
هو اللواتي خارهن مروع	مما يقلن وقولهن مكذب
هو اللواتي روحهن مهدد	بالفقر يبعق ملله او ينهب
هو اللواتي ديبهن مصعب	هو اللواتي تطفلهن مقرب

ولاشيء ابغ في الدلالة على ان القضية كانت بالنسبة للشاعر مجرد مسألة

نظرية من كونه هو وجمهورية اناء لنساء غير متعلقات ولو كان حريصا على اقتناع
جمهورية بصرة تعليم المرأة لما استقرهم هذه الصورة وفي نهاية القصيدة يتجلى
أكثر فاكتر الطابع النظري للفضية حين يقول عن المتعلمة

تلك التي رفعت بنى للتلميذ في

أفق العلاء قلوعلوا واستوعبوا

ملكوا البسيطة شبدوا عمرانها

دشروا السلام فقربوا وتقربوا

وينبغي ايضا ان نلاحظ ان السائد ابداع عن تعليم المرأة على اساس ان
التعليم حق بشري للمرأة وانما لانه يرى فيه وسيلة لتفريج روحيات صباغات
وامهات مثاليات ويشاركه حسن عثمان بدرى نفس الراى فيكمل الصورة
معددا مزايا المرأة المتعلمة

عفى الملاك نبيتها فيها الممصرة تحطب
نلغاك عفى حلق يكاد من اللطافة يسكب

وواضح ان موقفنا اليوم من هذه القضية لا يستند مطلقا الى كون المرأة
المتعلمة روحا اصبح او اما ارشد وانما يستند الى اقتناعنا الثابت بحق المرأة
كإنسان في ان تحيا وتحارب ونال نصيبها الشرعى من العلم والوعى والسعادة
وهذا الهمم نحن انفسا بعددين جدا عن السا ورميله وبمس الوقت قريبين
جدا من حيل فرح وهو يصع القضية في اطارها الانسانى الصحيح

انصفوها من حياة نصفها حائر والنصف حسم حائل
علموها انها مدرسة لحياة ما اليها طائل

واذا وصح لنا عند الاختلاف العميق بين تفكير الوثنة وتفكير حيل
حمد، فانه من الواجب ان نذكر ان اصل هذا لم يكن يوقف الحيل الحفيد
كنه فقد كانت " نسبة تقف ضد هذه الدعوة الحديدي وتجارها بصراحة
ووصوح وترى فيها حروحا على الدين والخلق القويم
لقد ابلحت العقيدة الثورية في حق تفكير علمائى بقس لامور من ناحية
صلاحها و عدم صلاحها لظروف البيئة السودانية وسوء وصل ذلك التفكير
الى النائح الصحيحة او احطأ فاسا لا يستطيع ان تنفى عنه صفة التفكير
ونصمه بالانقباد اما لدى التيار الاخر فقد طبوا الى امهية مهورين بكل ما

يُعمل الاستعماريون ويقدرّون في انفسهم ان كل ما يصدر عن الانجليزى
الخصيف هو الصواب عين الصواب. وباسم هذا التفكير المستقل يمكننا ان
نغفر للوثبة كل اخطائها

لقد انتهت الثورة هاية فاحشة وارداد الخلل تمزقا وتمزقا فقضى من قضى في
لسجون ومات شهيدا من تمكن منه الاستعماريون واورت البقية الباقية
مستسلمة للحقد والكفر واستزال اللعنة على كل شيء. واعتبرت الثورة
سنوات عجفاء من الكبت والقهر والمطاردة كانت امتحانا عسيرا للمكر
السودانى وبالرغم من كل ذلك لا يستطيع اى انسان ان يلقى على الوثبة
مسؤولية ادائه من المستحيل ان نلوم محاربا لانه اهرم او بطلا لانه استشهد
وعلى العكس من ذلك تركت لنا الوثبة هذا المعطاء الهائل الذى حاولت جميعه
فيما سبق. واهم من كل ما وصعنا ايدينا عليه من منجزات ثورة ١٩٢٤ هو
كوبها اول هبة وطنية تقوم بها طبقة المستقبل في البلاد تنهر القبضة الاستعمارية
هزا عنيف وتؤكد لها ان احصاد الدراويش مايرلون محتفظين تلك الخدوة
المقدسة التى تنتفص في اللحظة المناسبة فتصنع المعجزات ان ثورة ١٩٢٤
هى تعبيرة رائعة عبر روح شعبا المنافع الصور الذى يصبر ويصبر كاخواد
الاصيل وفحاة يرفس في اسواء فيتدفع الى الاحيم بكل القيود والسجون
والحصون. وادا استطاع درويشنا القديم ان يحرر امة كامنة بجيش من
العصى وادا هت حميرنا لنهرم باحجار الشوارع حكومة دكتانورية عسكرية
ان ثورة ١٩٢٤ تقف حشا لى جنب مع هذه الاحداث لانها في النهاية ثمة من
الخنود يؤججون ليل الامراطورية البريطانية بالثورة واليهيب
ر ثورة ١٩٢٤ هى بداية طريق الحرية في السودان الحديث ولكى ننتهم
روعة هذا لطريق يبعى ان يقف طويلا عند السوات المعفاف سنوات
مابعد الثورة لنعرف الظروف الرهيبة التى كان المد الوطنى يعمل تحت وطأتها

السنوات العجاف ✖

بعد فشل الثورة في ١٩٢٤ سيطر على البلاد جو من الحزن والكآبة الموحلة وبدأت فترة رهيبة في تاريخ الفكر السوداني - فترة من الارهاب والقسوة والمطاردة وبفظاظاة حافية سبق الشباب الثائر الى المنايا والسجون وعومل بوحشية سقط امامها البعض فريسة للابينة وامراض الصدر والجنون . . . وطورد من نجا من السجن وحورب في ررقه وحريرته حتى اضطر الى الصمت او مغادرة البلاد واستسلم المثقفون لحاله مفزعة من اليأس والذهول كفر بعضهم بالشعب وفعالية الكفاح وعكفوا على ذواتهم بالرثاء والتعزية موسعين كل شيء سبابا . واختار البعض الاخر ان يعمض عينيه عن الهول المائل حتى لا يرى وينادي وفي قلب هذا الرعب انتصبت ابراج المراقبة الاستعمارية تقرب هذا وتعد ذاك وتدس هؤلاء وتوقع بأولئك وتنتشر في صفوف المثقفين السودانيين اقدر التقاليد واشدها انحطاطا - تقاليد الفتنة والدس والسعاية والتناق.

ولم يكتف الاستعماريون بذلك بل فرضوا على البلاد عقوبات تأديبية استهدفت المتعلمين في معظم الاحوال وحرمتهم حتى من ذلك البصيص الضئيل الذي خلق الوعي واشعل الثورة وشن الانجليز على المتعلمين حربا عوانا لا هوادة فيها فاخذوا يحصون عليهم كل طرفه ويسجلون كل همسة ويأخذونهم بالشدة لدى اقل شبهة وشرعوا يفسدون ما بينهم وبين آثامهم واخوانهم زعماء العشائر من نظار ومشايخ وعمد ملقين في روعهم ان الخريجين يريدون ان يسلبوا نفوذهم ويوقعوا بينهم وقبائلهم ليجردوهم من مكاناتهم الموروثة ليقموا مكان هذه حكومة من الافندية مقرها الخرطوم ولطالما تندر الانجليز بحكومة الافندية هذه مع المشايخ والعمد امعانا في خلق وزيادة اخوة بينهم (١) وبهذا صمن الانجليز بقاء ذلك التحالف والتعاون المستمر بينهم وبين الطبقة الاقوى في المجتمع وهي طبقة الرعاء العشائريين والطائفيين

✧ بهذه التسمية المبتكرة ادبى للاديب عبدالله علي ابراهيم اول من اطلقها
(١) ملامح لحسن نجيله ص ٢٧٧

وبمس الوقت صمموا عزل المثقفين عن تلك الطبقة وتوسع شقة خلاف بينها
وبينهم

« كذلك قرر الانجليز حرمان البلاد من كل الوان التعلم «حرمانا امتد الى
عشر سنوات فأغلقوا المدرسة الحربية حتى لا يتخرج ضابط حديد ثم علقوا
مدرسة العرفاء التى تخريج مدرسى المدارس الاولية ابدان بالا تفتح مدرسة
اولية بعدا كما قرروا الا يرداد عدد فصول المدارس الابتدائية القائمة فصلا
وحدا ولا يضاف تلميذ واحد فوق العدد المقرر (٢) وم يسلم من مطاردهم
حتى الاندية الرياضية فقد اقلعوا نادى التهذيب الرياضى - اوان ناد رياضى
بالسودان ساء على اشاعة كادبة «بان اعضاء النادى يتدربون تدريبا عسكريا
ليناهضوا الحكومة فيما بعد (٣) وبجانب كل هذ تم اغتيال حريدة السودان
فى عام ١٩٢٥ حين قامت شركة ماكودكوديل الانجليزية بشرء مطابعها
ومعداتا

« وادا كنا لا نزال نشهد مظاهر سطحية ومساعدة للتوسع التعليمى فان لكل
مها مرراها وظروفها القاهرة التى فرصت ها وجودها وصمته فمثلا يخبرنا
الاستاذ حسن نجيه ان مدرسة كنشتر الطبية التى تم افتتاحها عقب الثورة
مباشرة ما كانت لترى النور لولا ان التفكير فى انشائها بدأ قبل عام ١٩٢٤
وكانت معدتها قد اعدت قبل اندلاع الثورة واما البعثات التى بدأ لانجليز
بايفادها الى بيروت لتلقى العلم فلم يكن السدفع ليها الرغبة فى ترويد
السودانيين بالثقافة بقدر ما كان المقصود منها صرفهم عن الثقافة المصرية التى
كانت تغى بالثورة والرغبة فى التحرر والامستقلال ومع ذلك فان عدد
المبعوثين الى بيروت لم يزد عن اربعة عشر شخصا خلال مدة عشر سنوات

لقد بدأت السنوات العجاف سنوات القحط والحدب وهزيمة التى
انعدم خلالها كل تفكير سياسى وكل تحرك وطنى كما انعدم بالضرورة كل نوع
من النشاط العلمى الرائد وعاد الفكر السودانى فكرا اديبا مجردا ماثما كان قبل
لوثة وظل هذا الشبح المقبص يحوب البلاد حتى تجمع الوعى القومى مرة
ثانية عند انعقاد مؤتمر الخريجين فى فبراير ١٩٣٨

(٢) ملاح لحسن نجيه ص ٢٩٠

(٣) الساطية الصحري ص ٨٣

٧ ان السنوات ما بين ١٩٢٤ - ١٩٣٨ تمثل بالنسبة للفكر السوداني الحديث مرحلة الحثيثة الثانية فبعد ان بدأ بالنشوء مع الوثبة اغتاله الاستعمار بقسوة بالغة وكان على حيل الرواد ان ينشأ ويستكمل وعيه تحت وطأة السنوات العجاف وان يحمل امانة الفكر ويعيد صياغته تحت ظلها الثقيل ومن هنا تصبح در ستا للسنوات العجاف مفناحا لنهم جيل الريادة وظروف الولادة الثانية للفكر السوداني

ولابد من كلمة عن هذه الولادة الثانية فقد رأيت في عضون حديثنا عن الوثبة كيف ساهمت بدور الفكر السياسي وما يقتضيه من لمحات اقتصادية واجتماعية ودينامية وكيف انها يمكن اعتبارها حدا فاصلا بين الطابع الادبي الصرف الذي كان مسيطرا على الفكر السوداني وبين الطابع العلمي الشامل وقد اوجبت الثورة روادا حقا قيس في كل تلك المجالات ولكن الهزيمة قصت على تلك البدور كما قصت على اولئك الرواد الاوائل . وحتى اذا سمعنا بان تأثير الوثبة عاود الظهور بعد مؤتمر الخريجين فاننا لا نستطيع لمعادلة في ان الرجال الذين انجبتهم الثورة قصى عليهم قضاء مراما وتم اعتبارهم فكريا بطرق عاية في الدماء مع طريق السحن والتشريد والمطاردة المروى حين لوثة في اقصى ركن من المجتمع نادما حظه العائر وطلعه النحاس ومشكبا من كل شيء ومترما بالكبت المروص عليه كما يعبر الشاعر حسن عمر الارهمي

لعب السكسون دي هل سلمت	كره درمي تأقدهم عناه
ثقلوني معيرة واحكروا	كل مشروع سوى باب المشاه
امسكوا عن فلمي بل امسكو	لعطة نخرج من بين الشاه
امسكوا عن فلمي بل امسكو	لعطة نخرج من بين الشاه
فالنزمت الصمب حذي لم أقل	من كلامي غير اه ثم اه

وفي هذا الخواخناق يستسلم صالح عبدالقادر (احد رجال الصف الاول في الوثبة) الى هذا المصير القاتم حاقدا على الزمن الذي لا ينصف والناس الذين لا يقدر وون ومغريا بقدرية متعصبة تؤمن بالخط والقال والمصادفة

دقد الصدر وحطى	اععض العيين وناما
لم يكن يعدل حتى	علم الناس الكلاما
حالف الجهل لكن	عن ذوي الفصل تعلمي

ويصرب على نفس الوتر مرة ثانية .

لا تلمنى فتكر متهمى ان عفى لم يكن منهما
ولم الدهر على مقصده اخطأ للدهر وعمدا صلما
ثم يخلص الى هذه الحكمة المبررة -

لا تفرح بنعمة ان الزمن له انقلاب
ان الرمان محكم سلوى الاسود والدثالث

ويتكرر نفس الموقف الساحط لى حبيب على حسب

الف الموم برعمه والعه فعذا نواد والمسور نواد
لا تستقر مكانه فى بلدة حتى ينادى بالرحيل منادى
لكندى كرة ودهرى لاعب يرمى به الحدثال باستبداد

وفى الطرف الاقصى للصورة يقع حسن عشان بدرى مترعما جمعته من
الشمرء اهجائين منصرفين بطاقتهم الشعرية الى (درج السفسف) وعبره من
صغار الامور التى تكشف عن استحقاق اصبل ولا مبالاة كامنة بها يجرى فى
المجتمع ولكن تحت هذا المظهر اللامبالى يخنىء الاحساس بالتحس
وبالصياح ذلك الاحساس الذى يطل برأسه الفاصح فى اللحظة المناسبة متحد
ايضا صورة المحوم على الرمان والاقدار

كم علك الدهر مثلى فى مطالبه فما انثنى لاقتدار الكد والفشل
وكم بليت بالام اكتمها وحلة اسمعندى كل منندل

«حسن عشان بدرى»

وحسب الدين سلموا من لعنة اخفد على العالم ولرمان لم يجمعوا اكثر من
خون على الثورة المحهضة والحث عن العراء وسيد نوبيق صالح حريل
يتحد هذا الموقف مظهر الارتداد بعد ان كان فى شبابه شاعر الكفاح الذى
تدوى اشعاره فى صحف القاهرة عاد مرة اخرى ليصبح شاعر الروح واللباى
للملاح وفى اولى قصائده بعد الهزيمة يرثى شهداء الثورة مخاطبا اثنين من رملاء
الكفاح فيتحسر على الصباط الشهداء الاربعة الذين اعدمهم الانجليز ويذكر
احياء سر الختم وعلى عبداللطيف زعيم اللواء الاصل ويعلى فى النهاية ن

العوادل حانبوا الصواب والعدل حين لاموه على صده الحسرة بالخمير

اعلمنا ما كان بعدكما وما	فعلت باهلينا يد السفاح
اودى ناربعة صدور فى الوعى	يلويحهم القوا صدور رماح
فى حفرة من بعد ان اطلوهمو	لرا توقد فى الدغار الصاحى
ومصوا بسر الحنم بعد صفيه	رب اللواء الابيص الوصم
للسجر للشريد لا لحريرة	ما للود من اوصيهم بحسب

قللى المعذب دائم حوفائه	اندا يرف كعالف بحفاح
لام العوادل عزلتى عن صحتى	رهدا وصدى حسرتى بالراح

وهكذا تسللوا واحدا بعد الآخر ولم يتركوا في الميدان سوى عدد قليل من الرجال الذين احتاروا الصمت بطريقة اخرى - الصمت الناطق فقد انصرف حمره الملك طيبل وعرفات الى الادب واهمكا فيه بعد ان اغلقت منافذ السياسة فاصبحا علميين من اعلام التجديد والاحياء في الادب - وادا ظلا يتكلمان الى النهاية فاهما طلا ايضا الى النهاية صامتين عن المواضيع المبتورة التي طرحتها لثورة ثم اصبح ناولها حراما ومع ذلك يظل من الممكن ان نربط بين هذا لتحديد وبين الموقف السياسى القديم اذ ان الدعوة التي يتصدرها الاديبان هي دعوة الى ادب سودانى متميز الوجه وهذا الموقف القومى المتحرر من نعمة الوحدة (وحدة وادى النيل) هو رد الفعل الاكيد للهزيمة وما صاحبها من سحق على المصريين الذين لم يتدخل حينهم في احداث الثورة العسكرية ليؤرر رملاء السلاح من الصباط السودانيين والذين انصرفوا عن السودان وراحوا يفاوضون الانجليز في امر استقلالهم الخاص الامر الذى دفع بالشاعر حسن عمر الارهرى الى ان يصبح هم محذرا

ذكروا السودان فى استقلالكم	قيل مصر فهو يبيعوم الحياة
كل من قدم مصرنا قبلنا	حانه ان تعصب الماء يداه
مصر والسودان شىء واحد	كل قطر منهما يفدى لحداه
كل قطر منهما ان لم يزل	يحبب الثانى فقل يا ويلتاه

٤٠ وراء خيبة الامل هذه في الكفاح المشترك راحوا يؤكدون على نوع وحيد من الانفصال كان يبدو لهم ممكنا وقريبا المثال الانفصال الثقافي بمعنى خلق ادب سوداني مميز للملامح اس من ادب العرب وادب الغرب فقط واسما عن الادب المصري الحديث ايضا ومهما تكن الدوافع الكامنة وراء تلك النزعة يومئذ فانها اثبتت في النهاية انها لا اكثر من الوصف الطبيعي والمفارقة الكرى هي ان اشد دعاء هذا المذهب تشددا وحرصا في عصرنا الحاضر كان استادا مصرية هو الدكتور النوبهي الذي اثار معركة ادبية كبرى باهتماماته للادب السوداني بفقدان الروح القومية لقد وصل فلول الثوار الى الحقيقة بدوافع حاقدة ومشحونة بالخيبة والمرارة ولكنها تظل تحت محهر البحث حقيقة لا يتطرق اليها الشك ودا كان الجميع قد احتاروا المحروب والآنزواء فان رجلا واحدا حمل عن الجبل خطايا ومرارته المكتومة واتخذ موقفا متفردا ولا منتما ليصدر الادانة على كل شيء انه الشاعر حسين منصور صاحب ديوان الشاطئ الصخري والذي بلغت عنده المرارة حدا يقارب اللوثة فتعجر بعضه على كل شيء ومن الصعوبة ان نجد في السواك العجاف رجلا واحدا او مؤسسة واحدة سلمت من هجائه المرير فتراه يهجو احمد عثمان القاصي ويوسف النني وسليمان كشه وسليمان منديل وعبدالله عبدالرحمن وعلى عبدالرحمن وشيخ المعهد العلمي وجماعة بولنو والعقاد ورئيس النادي السوداني بمصر وكية غردون ورجال السياسة في مصر وكافة الشعراء السودانيين رائدا الزمان ككل والانجليز على وجه التقميم ويذهب الشاعر في حقد رعبه مذهبيا بعيدا فيرمي جميع عدائه بالعباء والسفالة والتحيت وتصل حملاته دروة الفحش حينها يهاجم من يسميهم المستعجمين ويعتبرهم أس البلاء والمشايخ الذين يرى منهم ميلا الى المستعمرين وتشبها بهم

ايها المارقون لنستم نشيء لو حذيرين لمتعطشى ونشيء
لا أرى فيكم سوى ما املئى من فنى خائر ومن شيم سوء
ايها المارقون مهلا فقد افسدتم للشعب من شتاب ونشيء
ما عرفتم اعاجما ثم ام عربا رزئتم والله اكبر رزء

وفي قصيدته (قسم عظيم) وضع تحديدا جيدا لاعدائه

الاحديين من الفرنجة ربههم والقبائليين له نطيب دعوس

والناطفين بلحهم فكأنهم وكأنه عندي نبيب تيبوس

ثم يستطرد الى البذاءة

والاخرين ذوى العمائم والالحى	اللابسين ملائس الصاويوس
يدعونها فرجية سنية	لكيها للحبر والقسيس
أما العمائم فهي صم كلها	ولحهم ليست على الداموس
متحرمين فى مشوا وهرولوا	عقراشة طارت لدار مجوس
شفقا لهم لافرق دير ادنهم	ولله او صرب على نقوس

ويصل قمة المبحش في هجائه للمتعملين وذلك في قصيدته (رثاء الوالدة)
يدعو ذلك زفيرا وزئيرا :

وان الذى قد شئت له بعد	سأفقد انصار المناسير بالتعس
واقطف كالحجاج لرؤس فتنة	محبحة الحديد باتت على كرس
يسمونها كلية وحقيقة	بها جمعت كل الصلاة والفلس
يسمى على ماء الرجال نيلها	ول اكرمهم فالعداء من العبد
تنظر بهم خيرا ويعجب فرهم	فل ررتهم ماسو بالدرعة فلس
ومدوا شفعا ادميت من ترشف	وقلوا بلا خوف لظلمهم هيس
هم النفر الانجس من عرس يودل	واخوانه من ذلك الصنف والجنس

وقد تدخلت ثقافة الشاعر وميوله الشخصية لتوحى اليه ان سبب الازمة هو
الثقافة الاستعمارية لتي تشبع بها السودانيون فكرس جهده لحرب تلك الثقافة
وعندما يشتم لعقاد فيس لسبب سوى انه يعتمد الثقافة الاوربية التي يمتقتها
شد انتق فيقول عنه «ذلك الدعى المربص النفس الذى يأتى عقله كل اسبوع
من وريبا مع الريد الاوربي» ونزعاته المرومية يحيل اليه ان اخلاص لا
يكون الا بنبد معطيات الحضارة الغربية

وقد ساعدت الشاعر طروفة العربية لينحدث هذه الصراحة فقد كان لا
متنميا حقيقيا وحياته موزعة بين مصر والسودان وكان في مايلدو متنها في عقله
فاستطاع عن سبيل هذه المفارقات ان يجد طريقه الى نشر ديوانه ولكن الاحيال
التي هجها لم تعصر له مطلقا فكما تامر وا عليه حيا تامر وا عليه ميتا وعملوا على
احفائه وبعاده عن الضوء ولا يكاد يجرى له ذكر على لسان احد سوى التجاني

يوسف بشير الديو كان صديقا وشبه تلميذ له وذلك في قصيدته له في ديوانه اشراقه كما يبدو انه كتب ترجمته القصيرة في نقشات اليراع (وهناك رأى يقول بان كل لآراء الادبية التي تضمنتها الكتاب المذكور من انتاج التحاني وهو امر محتمل).

وإذا كانت السنوات العجاف قد شهدت تشتت حيل لوثية تحت وطأة هزيمة قامها قد شهدت ايضا بروز حل جديد يتضرم بالفتوة والحوية وشهدت لذلك الحيل احصص سنوات شبابه بكل عنفها المكبوت وتطلعا لها لدى شاء له الاستمرار ان يدوى ويموت ولكنه انفجر في النهاية ورعما عن كل تدبير مضاد - هذا الجبل هو حيل الرواد حيل قدر عليه ان يتفتح وعيه على الحياة بصدمة الهزيمة في عام ١٩٢٤ وان يحيا السنوات المقبلة التي نلتها تحت ظل الارهاب والمطاردة من قبل السلطة المعتدية وان يدع تمام وعيه ونضوجه في جو غائم فكريا وقائم اجتماعيا ودامس سياسيا - وإذا كنا نسميهم رواد (ضمن اسباب اخرى) لانهم لم يتسلموا الراية من احد بل كان عليهم ان يصنعوا رايته الخاصة ويقطعوا بها الشوط عدوا ولهذا كان حتما ان يتحبطوا في البداية وان يجرؤوا كل انواع المصالحة قبل ان يكتشفوا في النهاية ان لا سبيل سوى قتال السلطة لسياسة الاحبية وتحرير دوائهم وبلادهم من ظلها الخانق وقيدها الثقيل.

كان الطريق امامهم مظلما مؤثلا لا يدعو الى السير بقدر ما يدعو الى التحسس والاستكشاف وكان درس الوثبة مايرال ماثلا امام اعينهم بنتائج المبررة متجسدا في جسم الثورة المصمعة وحسد الامة المثخن بالحراج وتحت هذه الظروف كان لا بد من الحذر والتثبت واتحاد الالهية الكاملة قبل الانطلاق.

واتحد هذا الحذر صورة حصيفة من صور الالحاح على النعيم والسعي الى التوسع فيه حتى ترداد القاعدة الثورية المكونة اساسا من الطلائع المثقفة وبهذا المهم راحوا يدلون اقصى الجهد في الحصص على التعليم والاقبال عليه وتبئة وسائله للاحريرين بفتح المدارس الاهلية وانشاء الصحف والاندية الثقافية واقامة المحاضرات والندوات ومن هنا تنصص كتابات الرواد بالترعب في العلم والاشادة بدوره في تطوير المجتمعات والتحاني يرى ان

كل ملقى النورى عدا العظم لا يكبر شعبا ولا يمدد فنظرا

ويشيعه في الرأى محمود حمدي بطريقة وعطية

نسى وصلى في العلم حاه وذروا كما الجهل فيه دله المرء والفقير

كما نجد لديهم احتفاء لا مثيل له بكل ما هو جيد او جديد في عالم
الفكر السوداني فالتحاني يكتب قصيدة رائعة تكريما للمؤرخ محمد
عبد الرحيم وحرى لمؤلف روبة (عائشة بين صديقيين ويتحمس المحبوب
لكل ما هو سوداني في عالم الثقافة فراء يتحدث في رثائه لمعاوية محمد نور برهو
وافتحار ومع ان معاوية قد فسد المثقف في مصر ولبنان حين راءها الا ان
ذلك الاثنان لم يكن واسع الطاق وماوفا لما يستحقه معاوية بعقده المتقد
ودكته الخارق ولكن هذا يكفي ليحمل المحبوب بنه رهوا وفحرا فيها هو
احد السودانيين يرقى مرقى عظيما ويسحود على اعحاب الناس خارج القطر

ورب مصر فكنت بحم سعود	ولبنان حرت أعلى المراقى
شهد الارز من ينبوعك نورا	وكست السداف اثر السداف
ونزلت في الكدانة عينا	مستهل الارعاد والابراف
صرب الناس للنبوع وراخوا	يرقدون للهلل قبل المحاف
ينمسون من سلك ضياء	كضياء الصباح بعد انغلاق

كذلك اذا انعقد المهرحان الادبي في ودمدنى وبصورته اموصعة التي
نعرفها فان لمرحة لعامة تخرج المحبوب عن طوره حتى يبرى في المهرحان
حدثا فريدا حدثت به اللغة شباهها وشهدت احل عصورها واراها

شهدت به الفصحى جميل عهودها
وعكظ لزهو والزمان محيل

وسفس الوقت يقترن طلب العلم لديهم باحلم مظاهر الحفاوة والمحتف
المثقف بكاميه يحتمل بحريج الاطباء وسفر البعثة الى بيروت ويعودتها منها
كما يقيم الدين ويقعدها بحفلات التأبين والرثاء لاي منعلم يدركه الاحل
وبجانب هذا كله اقيمت عدة مدارس اهلية جمعت ها التبرعت بالحفلات
لشعرية وتقديم الروايات وباستثمار هم الرجال كما شهدت السنوات
العجاف هضة صحفية واسعة فظهرت محلات النهضة والفجر والملتقى ولا
نبالغ اذا قلنا ان السودان لم يظفر من بعد بمحلة واحدة تصارع المنجر مثلا في

الجودة والحداثة

وما دام الرواد هم مقدمو الفكرة فلا عجب ان يتأثروا بها ويعملوا على تطبيقها بانفسهم فقبلوا على المعرفة والاطلاع بحماس لا يعرف الفتور ويتأثروا في التحصيل والاستيعاب - ومجربنا - التاريخ انهم بلغ هم الولع بالقراءة انهم كانوا يقومون حلقات للقراءة في الاحياء يقرأون فيها كل حديد ويتدارسونه فيما بينهم ليظمنوا الى استيعابه ونقده مدعوعين الى ذلك بالرعة في المعرفة وبالسرعة الوطنية التي ترى في ازدياد المعرفة طريق البلاد الى الحرية ولنستمع الى الاستاد حسن نجيله (احد ابناء جيل الريادة) وهو يشرح لنا دوافع حيله قائلا « هذا الاصطهاد وهذه الحرب المستمرة ضد المتعلمين جعلتنا نحرص على الاستزادة من المعرفة وكأننا هذا فوق مانميد من سعبنا للمعرفة نكيد للمستعمرين ونرى في هذه الجهود الشخصية التي نبذلها في الدراسة والتحصيل نوعا من الحرب عليهم (١) وبفضل هذه الحمى الخائفة انعدم كل نوع من التخصص واصبحت ثقافة الخيل موسوعية (٢) الى ابعد حد فالمحجوب (٣) مثلا شاعر وناقد وحقوقى ومهندس ويوسف التني (٤) شاعر وضابط ومهندس وصحفي وعبدالحليم محمد (٥) اديب وطبيب اخصائى وكذلك الحال مع محمود حمدي (٦) وبدوى عبدالقادر (٧) . وهذا الوضع يبدو طبيعيا ومعقولا تحت ظروف الفترة واكثر من ذلك كانت تقتضيه ظروف الريادة في بلاد تحتاج الى الرواد في كل المجالات بحيث يتحول المرائد الى جاك

(١) من مقاله به معنوان (البحاسي كما عرفته) في الكتف الموسوم در سات في شعر لتجاني

(٢) وب من شت في - انشباب لسوداني وجد نفسه في حاجة ملحة الى دراسه المعلومات العامة وخاصة مايسمونه علم الموسوعات

لحركة الفكرية في السودان للمحجوب من - ٢١

(٣) سدرج مؤلفه من محارب قلب اديوان شعري الى (الحركة الفكرية وما يجب ان تتجه اليه) الى (الحكومة المحلية)

(٤) صاحب ديوان (الصدى الاول) والسرائر

(٥) شريك مع احصور في تأليف (موت دنيا) وهو مجموعات ذكرين واصطاعات

(٦) صاحب ديوان (الشمس الاول)

(٧) مؤلف رواية (هائم على الارض)

لكل لصنائع كما يعرف امثال الانجليزى ويتحلى فلق اهل الرائد وحيرته في معاونة محمد نور وحياته القصيرة العتيفة فقد بدأ دراسة الطب في السودان بيهجره ويذهب الى السودان ليدرس الادب الانجيزى ويعود الى السودان لمعمل صحفيا منطوعا ثم يعود الى القاهرة لشتغل بالصحافة ويعود للسودان لعمل سكرتير لمعرفة التجارة وهكذا تنوع ايامه من مختلف المهام ومختلف البلاد وينعكس كل هذا على اثاره فهو يكتب بالانجليزى والعربية ويكتب في الادب والسياسة والنقد وعن طريقه تنوع لشديد في ابحاره تصيب بحارته جميعا في الرحام

د. معاوية لا اكثر من سيدح لصحانا السنوات العجاف فهذه عشرات وعشرات صاعوا بما في عمرة الركود الفاس لدى جسم على مجتمع السودان ولم يبق له منهم سوى بضع احوار واثار ولكن في الجانب الاخر من الصورة نلتقى بالاحريين الذين استمدوا من ظروف الركود بعد لقضاء على فلول الثوار وتشتتهم في بقاع الارض وطلبات نسحو والماضى كاد وضع جديد يطل برأسه على البلاد وضع يمسر بامكانه السامة الى مهبوه التعليم للمتعلمين لدى الحكومة فقد اصحت ذات معمة العالى في نهاية السنوات العجاف وانفتحت معه فرص العمل ولتة في تمام اولئك للمعلمين واثار انسحاب الموظفين المصريين اصبح بمقدور السودانى المتعلم ان يطمح الى وظائف ودرجات لم يكن يحلم بها من قبل وشهدت لسنوات العجاف صعود نجم الموظفين وتسلمهم المراكز التى كاد بمبوها فلا حيل المهر ومن والمشردين من ابناء الوثبة وعن طريق الدرجات الجامعية ودراسات امراة ولد حيش من القضاة والاطباء والمهندسين والمدرسين ويبدو ان الاسعار الانجيزى اطمأن بعض الشيء الى الركود السياسى لدى عم البلاد والى التقاليد القدرة التى بثها في صفوف المعلمين فلم يعد بضع لهم حسابا وعلى العكس من ذلك بدأ يفتح امامهم سبل الدراسة والترقى

وهكذا برزت الى الوجود ارستقراطية جديدة قومها الموظفين ولكنها ارستقراطية مغلوقة على امرها ومشرطة برضاء السادة لانجليز ومشرطة ايضا بطروف المجتمع المتحلف المقهور ومن هذه الارستقراطية الجديدة

ومن الصياع الكامل الذي عاشه فقراء الجيل يتكون رافد كبير يكمن خلف
مجهودات الرواد ويصبغ فكرهم بطابعه المميز وعن طريق دراستنا للرواد
يمكننا ان نتفهم ونقدر اثر السنوات المجاف على الفكر السوداني الذي يمثل
الرواد بالنسبة له عصر الاحياء وبنفس الوقت عصر الابداع.

الرواد

ظل الفكر السوداني حتى مجيء هذا الجيل حبيس الاطر الدينية واللعوية وبعيدا عن اى تأثير صميم بالحضارة الغربية التى عززت الشرق وظل عاكفا على فنون المعارف التقليدية المتوارثة عن العرب لا يضيف اليها ولا يجدد فيها بغير ما كان يجترها ويستعيدنها وبالتالى يسهم فى مسخها وطمس معالمها الثورية ونتيجة لكل ذلك بقى الفكر السودانى محافظا على طابعه الادبى و التكمير ولم يكتسب النزعة العلمية التى كانت طابع الفكر الاوروبى الجديد وظلت ادواته التعبيرية نفسها لا تتجاوز القصيدة والمقالة الانشائية والخطبة المنبرية ومع ان الوثبة فى ١٩٢٤ اتت معها بىواكير التفكير العلمى الا انها قصى عليها عقب الهزيمة قساء تاما وكان على الجيل القادم ان يبدأ من البداية

وهنا تدخل عامل هام فقد تلقى الجيل التالى دراسة مبهجة منتظمة بعكس الدراسة المستعجلة التى تلقاها الجيل السابق وعن طريق هذه المبهجة وذلك الانظام اتيح للجيل الجديد ان يتعرف الى الحضارة الغربية تعرفا وثيقا وينهل من مناهلها الاصيله فيتحمس المرق بينها وبين ما بيديه من فكر ويتمكن من المقارنة والمفاضلة والاختيار فينتهى الى وعى حديد بما ينقص بلاده من مقومات الحضارة والمدنية ويبدأ سعيه الحثيث لايجاد تلك العناصر الناقصة . ومن الساحية الاخرى كان هذا الاستيعاب المتأنى للحضارة العرب قد تم فى بلاد الشرق العربى وخاصة مصر والشام وبدأت نتائجه تظهر على اقلام الكاتين من المصريين والسوريين واللبانيين وبدأ متعلمو السودان يتلقفون ما يحيطه اولئك الرواد فى مصر والشام بشغف واعجاب ويتلقفون عنهم ما عجزوا عن تلقيه مباشرة عن الاصول فيكتسبون وعيا مردوجا يجمع بين ما يجيء فى الاصول الاوربية وما يصيغه الرواد العرب من نقد او تشذيب

ومن هذين المنبعين يأتى عصر الريادة بالنسبة لهذا الجيل فهم رواد لانهم اول من استكشف تخوم الفكر الاوروبى وقام بنقله واستيعابه وهم رواد لانهم تسلحوا بذلك الفكر واستفادوا منه فى اغناء الثقافة السودانية بعناصر كانت مجهولة لديها فظهر العلماء فى مجالات الطب والهندسة والمتخصصون فى الاقتصاد والاجتماع والترية وادخلت على الادب فنون جديدة كالقصة

والمسرحية وافكار جديدة كالتلفسف والرومانسية ولكن الانجاز الاهم لهذا الجيل يبدو في المجال الادبي ففي هذه النقطة كان الجيل كله يلتقي وكان من النادر ان نجد بينهم من لا يكتب الشعر او يديج المقالات او على الاقل من لا يقرأها ويسمعها بتدقيق وامعان . وكان الادب الهواية الاولى للجيل والتقليد السائد فيه .

ووراء هذه الظاهرة يكمن اكثر من سبب فقد كانت السنوات العجاف تبسط ظلها البغيض على السودان وكان على المتعلمين ان يختاروا الهروب وان يصرفوا طاقاتهم الشابة المتعجزة الى مصرف يشعرهم بالانجاز والتحقيق فاختاروا الادب والفن سبيلا الى هذه العاية وكانوا حتى في ذلك مرغمين اذ ان الفكر السائد في العصر انئذ كان يفتح هذا الباب على مصراعيه بينما يوصد بقية الابواب .

لم يكن الفكر الشرقي عامة ينحار الى صف العلوم والتكنولوجيا لان هذه الفنون كانت في بداية تسربها الى الشرق ولعله لم يكتمل تعبيد طريقها اليه حتى الان .

ولم يكن الفكر الشرقي انئذ في صف الانجازات السياسية فقد كانت السياسة وليدا ملعونا ومطاردا وكان الاستعمار يفكر بضراوة وقسوة اى محاولا في ذلك السبيل

لم يكن الفكر الشرقي انئذ قد وعى قيمة العنون التشكيلية والعنون الدرامية حتى يدعوا الناس اليها فضلا عن ان الامكانات المادية في الشرق لم تكن في ذلك الوقت لتسمح بذلك النوع من الترف .

وهكذا لم يكن مفتوحا امامهم سوى طريق الادب (وبخاصة الشعر) الذي ظل مرددها وسيدا طوال العصور

ونحن نعرف في هذا العصر ان الادب والشعر خاصة فن لا يعرف الانفلاق على ذاته وان الحياة هي مادته الدائمة ولهذا يتبادر الى اذهانتنا ان الانصراف الى الشعر قد يعنى بطريقة اخرى الانصراف الى السياسة - يشبثنا على هذا الرعم مانعرف عن ادباء كثيرين كان ادبهم سياسة صرفا وبالتالي نتوقع من الرواد ان يتحدوا الشعر وسيلة للسياسة ومعبرا الى العمل الكفاحي ضد الاستعمار ولكن هذا الظن وهم واهم فقد كانت السياسة لا وجود لها وبالتالي لا سبيل الى التعبير عنها تعبيرا ادبيا . وكان العمل الكفاحي معطلا وان شئت فقل فرديا وبالتالي لا سبيل الى صياغته فنا . كانت كل الظروف تفرض عليهم ان

يتخذوا الشعر والادب ذريعة للهروب من احداث الحياة وفراغها ودمامتها
ومن الناحية الاخرى كان الفكر العربي قد عرف الرومانتيكية اما مترجمة
كما هو الحال مع ترجمات القصص والشعر الفرنسي وامام مدعاة بايدي الادباء
العرب كما هو في اثار جرير وابي ماضي وسائر المهجريين وفي اشعار المهندسين
وسائر ادباء مدرسة ابوللو وكان حيل الريادة قد اتصل بالفعل بهذه الاثار
قرأها واعجب بها وتأثرها واجدا فيها خلاصه ومخرجه من ازمته المحلية
لقد كان الشاعر الكلاسيكي القديم في عصور مشابهة للعصر الذي
تحدث عنه يهرب الى الشعر ايضا ولكن الشعر لم يكن يغنيه شيئا فتحت
التبجح والافتحار العريض بذلك الشعر نلمح في اغوارهم ملامح الحسرة
والاسى وكثيرا ما يجاهوننا بهذه الحقيقة شاكين من عهد لا يقدر الشاعر
ولا ينصف الاديب - نجد هذا لدى العباسي ونجده لدى البنا ونجده لدى سائر
شعراء الجيل الخفيد الذين يلحظهم العباسي في قوله متشكيا :

فقد ثراء المال وارور حادى ولم ينف لى إلا النوحهم والشعر

وبذلك يصبح الخلاص ناقصا والمهرب غير مريح
اما بالنسبة للشاعر الرومانسى فالشعر نعمة كاملة وخلاص غير منقوص
وملاذ اذا هربت اليه فقد عشت ادناك عن التقاط اصوات العالم الذى يضج
من حولك وعميت عينك عن رؤية الواقع الذى يحيط بك اد ان الرومانسية تبدأ
بتمجيد الشعر في ذاته كنشاط متسامى وارفع من هموم الارض ومتاعها ثم تمتد
بعد ذلك الى تمجيد العزلة كوسيلة الى التفرغ لعبادة الجمال وفي النهاية يجد
الشاعر الرومانسى نفسه وقد شاد عالمه الخاص والذي يحوى عادة المرأة
الحميلة والطبيعة الفاتنة وحقيقة من الشعر والهموم السامية .

وقد افاصت هذه مدعوة الرومانسية على الشعر قيمة اضافية واصبح اغراء
دائما للرواد ومع ان الجيل كله يشترك في هذا الانصراف الى الادب كمهرب
وملاذ الا ان دوافعهم تختلف وتباين . ولكي نتيقن الفرق لاينفى ان نسأل الى
اين هربوا وانما هم يهربون ؟ فقد كان لكل منهم قضية خاصة وطوفاته الخاص
الذى يضطره الى البحث عن جبل يعصمه من الماء وبالنسبة لايمكننا الحديث
عن تلك القصايا الخاصة ونحن نتكلم عن الجيل عموما فان المجال الطبيعي
لذلك هو الحديث عن افراد الجيل واحدا واحدا . ولكننا نستطيع ان ننظر في

تلك الدوايع المشتركة بين الافراد لتعرف منها ما كان يدفع الحيل الى الهروب
اسلمنا ان هذا الحيل انقسم تحت وطأة الظروف طائفتين (١) طائفة تلقت
اعلى انواع التعليم المعروفة في البلاد وتسمت وظائفها حطرها ومكانتها في
المجتمع ووحدت المجال امامها مفتوحا للترقى والتقدم فنشأ منها ارسقراطية
مثقفة يتسم افرادها بالبرعة الفردية المتمكنة وبالطموح الساسى وطائفة
اغلقت في وجهها ابواب التعليم العالى فلم تظهر من الوظائف الا باضأها شأنا
واقدها حظا وفي بعض الاحيان لم تظهر حتى بتلك الوظائف الصعبة الشأن
فكتب عليها ان تشقى وان تضيق وان تعتمل نفوس افرادها بالغصب والثورة
على كل شىء، ولكن كل طائفة من هذين كانت تبحث عن مهرب من الامها
الخاصة وعن ملاذ تناسى فيه المموم وتصبعها بصيغة الوهم الواهم حتى تعدو
شيئا مختلفا

كانت الارستقراطية المثقفة بحس التناقض المرعب بين ما ينبغي ان تكون
عليه الحياة وبين ما هي عليه - بين ما حاءت به الكتب من مثل عليا في الحياة
وبين ما هو مائل في الواقع السودانى من تحلف واحداث فيتهى الى الحسرة
العميقة على الشباب الذى يدوى بلا فعل ولا ممارسة وبلا استنزاف لطاقات
الخلق والابداع وامكانات الفعل والوجود (١) ولكى يتناسوا هذا الحأوا الى
الادب ليشيدوا بهادته المرفهة عالما سحيا رائعا يعمر باحب والغرام وتحظر فيه

المائئات المعبودات وصلا وهجرا ومنعا وعطاء وصدا وتقريبا فعمرت اثارهم
بقصائد الحب وحالاته وكرسوا انفسهم لذلك تمام التكريس فلولا اربع قصائد
قيمت في مناسبات عممة لكان ديوان (الشباب الاول) لمحمود حمدي من اوله
الى اخره وقفا على حب وشؤونه وينجو ديوان المحجوب بحمسة قصائد في
السياسة وشباب في الرثاء كما يعجو ديوان التنى بعدد مماثل ولم يقف الامر عند
حد الشعر بل تعداه الى القصة فظهرت منذ وقت مبكر اقاصيص الحب والهوى
على صفحات مجلة (النهضة) وكان ممكنا ان تقوى وتردهر لولا ان تصدى لها
المرحوم عرفات محمد عبدالله في مجلة الفجر فاوضح انها تدليس على الواقع
السودانى حيث يفصل الحسنان وتنعدم امكانية كل لقاء ومطارحة وملاطفة
ودعا الى الاقصوصة الاحتجاعة الى تصور مشاكل الناس ونفسياتهم فوحدت
دعوته استجابة حاسمة

١) في أوائل عام ١٩٦١ القى انوار عطيه (أحد موظفي حكومة السودان السوريين) محاضرة بعنوان من الحياه تحدث فيها عن الحياة الغربية وما يمر به من الجمال والهنوء والحرية والاصلاق وكان الشاعر السوداني محمود حمدي من شهود المحاضرة فاثارت فيه كآمن الشجن وصدقته بهذا لشعر الذي يصع أصعبا على موضع الجرح بامام

يا بني الألم التي أحرها أنكم لم ذبلعوا القى مداه
أنصروا هلا بظروهم ساعه كنف يلقى الثعب بالفر هواه
ملاوا بالمدهش المعرى الأثرى وسموا فأنزعوا للظير مسده
رعوا الحبس فبنى يلفف لحد نقطف من الحبس يداه
بو تطلعت الى الدار محد جدد صعرى وهم فيها حلاه
محد النسيف فبها ناحدا ما كثير فبه ان نضو الحياه
وند أفضت السكر العوى من بمل عرفت او من شفاه
وعر الاطفال حدث عحيا رجه بيعت في القف صفاه
صونه مصطفى عن فنانها الحياه القى وللعن الحياه



انه يا دور قد حدثنا حبرا يبعث في الشيم صباه
محن لم يحفل بها هي ارضا من حمل او سمان مرهله
الطبيعيات ام ذكرت قبل كفر الحبس يرماله الامه
والحمل الحف لو قدومه سمع الراميك جهر بالسفاه
واند رحت بهم فيكروه لم محد من بعضهم يحس اصباها
هو انفس و من لم ملعه بشبه الايمان لا هي خطاه

وبالرغم من ان كثرة من دارسى الادب السودانى يصفون اتجاهات هذه الطائفة بأنها اتجاهات رومانسية الا سى لا اميل الى الموافقة على هذا الوصف لان الرومانسية ليست فى مجرد الحديث عن الحب وصوره والطبيعة وحسبها وانما هى شيء اعمق من ذلك هى ثورة اجتماعية وفكرية لها اساسها الفكرى الخاص وتصورها الخاص للوجود فما كل من اشكى احب احد روادها ولا كل من تغزل بمنظر طبيعى احد انصارها

ويمكننا ان نقبل الحديث عن «مسحة» رومانسية تتفاوت فى القدر من شاعر الى اخر من شعراء هذا الاتجاه فهى مفقودة تماما عند محمود حمدي وهى ضئيلة جدا لدى التنى ولكنها تتوافر الى مدى معقول فى شعر المحبوب ويبدو ان هنالك علاقة وطيدة بين الوصف الاجتماعى للاديب وبين الثورة فى شعره فادباء هذه الطائفة كما رأينا كانوا يمثلون بالنسبة للمجتمع السودانى رجال الياقة البيضاء والوظائف المتخصصة ومن هنا لم تكن ثورتهم عارمة ولا قوية . وبعكسهم يبدو ادباء الطائفة الاخرى اعنف ثورة واشد رومانسية (هذا اذا سلمنا بان الرومانسية نفسها تحرك ثورى - كما يشهد بذلك تاريخها)

ولكن مصارقة تأتى من ظروف المجتمع السودانى خلال السنوات العجاف فلم تكن الرومانسية سلاحا هجوميا كما كانت فى ايدى روسو وهوجو فى فرنسا وانما كانت انسحابا وهروبا ودعوة انعزال ونتيجة لذلك كان الرومانسيون احقيقون اشد الناس هولا وبعدا عن مسرح الثورة الاجتماعية والسياسية التى بدأت بعد قيام مؤتمر الخريجين وكان رجال الياقة البيضاء فى مقدمة الصفوف - ليس لان هؤلاء اشد من اولئك وطنية وحاسا وانما لان هؤلاء توفر لهم اولا دافع الطموح فى حين سقط الآخرون فى عيالة اليأس ولان هؤلاء احتفظوا بالمسافة بينهم وبين الواقع على حين اسحب الآخرون الى اقصى بعد ممكن عن الواقع وقست عليهم ظروف الحياة قسوة مرعبة فهات التجانى يوسف بشير وهو فى مقتبل العمر دون الثلاثين واحتفى ابراهيم عبدالقادر فى وقت مبكر وتشرد عبدالله عشرينى وانشغل الآخرون بشؤون العيش عن كل شيء .

وحين كان التجانى يسبح فى تهيواناته الصوفية كان مثقفو الاتجاه الآخر يحوضون اعنف معاركهم مع الجيل الوالد على الصعيد الاجتماعى ويستلمون منه نحد السلاح كل سلطته الاجتماعية القديمة فحاربوا خرافاته وتقاليده وحطموا وقوفه الارعن امام الحديد ووصموه بالرجعية والتقليد ونسبوا اليه كل تأخر وشر تعاتيه البلاد:

ما دام هي الشرف للتقليد قائمة فهدى العرب لن يطوى له علم
(الشباب الاول ص ٧٦)

وبالطبع ، بصمت الحبل الاخر امام هذه الاتهامات فاشهر على الرواد حربا
عانية قوية ووصفهم بالخروج على الدين وبالانقياد الى الغربيين والانبهار
بخصارتهم ونسب اليهم ضعف الشعور الوطنى والقومى وقد كان
هذه حروب ، العنيفة اثرها على الرواد فيما بعد فاصحوا بميلين الى الحديد في
المجال الاجتماعى والمحبة التى ومن الشواهد المعرة ذلك الموقف الذى اتخذوه
من الشعر الحديث امان ظهوره ففى حين سارع الحبل السابق والجيل اللاحق
الى ادانته كان الرواد يبارسونه ملقين بدلوهم مع الدلاء وفى حين كان الجميع
يدينون الشاعر الحديد ويكفرونه كان التنى والمحجوب يجربان الشكل
الشعرى الحديد بلا تألف وبلا ارداء

ويبقى ان لا يفوتنا فى هذه المعركة ملاحظة امرين اولهما هو عدم اشتراك
الشعر فى المعركة بصورة واسعة فقد اكتفى الرواد بالمقالة كسلاح يشهرونه فى
وجه اجهزة الماوية محتفظين بالشعر للتهويلات والغناء الفردى الالىم والشيء
الثانى هو ان المعركة اقتصر على مظاهر سطحية للتخلف وصمت عن اشياء
اساسية كانهصال الخنسين فى المجتمع السودانى وحق المرأة فى العمل والسفور
وهى امور شديدة الارتباط بحياتهم الخاصة المليئة بالتطلع الى الحب والحياة
المفتوحة النطيفة وقد يحق لنا ان نتوقع منهم ثورة على تقاليد المجتمع
الانفصالى وضيقا بها واعلانا للسخط عليها ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك
واحتاروا الصمت عن كل تلك المسائل (١)

(١) هائل شواربه متناثره يمكنا ان نحدد على سبيل الحصر فى قصيدة لو كنت لمعجوب
وف هي كاملة

وحنيت منه نهدى وشغائى	لو كنت هر عزى الرىض عيذ
مكا يحف لو عي وشغائى	لو كنت سر فى السما حديد
اصو لرؤيته ولمت نراء	لكن شحك فى الحذور معيب

فى هذه الايات للتنى

انى مالك لا نسمع من الصيا كما لى
اصغيت الى ولى واصغيت الى لى
لان تكن التقاليد فهدى الحزم والفرقا

وأي أدب محمود حمدي الوارده بعد وما عدا هذه الاعلانات الحذونه بم طرح المسئله للنقاش
رغم لان الشعراء لم يكونوا يدعون و تحطيم الوجه الجميل الذي سجدوه وحشدوه بالعصب
و بلهت لان الاعتراف بتوافع الانعصالي يعني ان كل عوامياتهم المثالية بم تك أكثر من احلام
شعره

والذى حدث هو ان تلك التقاليد كانت من القوة والرسوخ بحيث احجموا عن مهاجمتها وابداء الصيغ لها ومثلهم مثل بقية الناس شرعوا في تسور حيشان الانفصال تحت ستار الدحى ليطلعنوا تلك التقاليد من الخلف سرا وفي هدوء او يكتفوا باحتطاف النظرة العجلى في طريق او حمل عرس او باهروب الى الحنة الاوروبية الموعودة حيث يحقق المجتمع قدرا اوفى من الحرية للجنسين

صال هذا البعاد بقلب حنى	لا أرى لاحتفاعنا من مرام
وادا كان كل حظك منه	وفعة بالديار فى كل عام
وحديث على المسرة حيناً	لو حيل يحيى فى الاحلام
أو تلاف كانه البرف عمراً	دير سيارة ويدير قرام
أو سلام على الطريف اذا ما	اسعف الحظ مرة بسلام
ان يكر دك كل حظك منه	هسلام عليك الف سلام

المحجوب

وهكذا تركوا القيل وطعنوا طله فانصرفوا بكلينهم الى محاربة العادات الصارة المتحلقة مثل لبس الرحط والكنفوس والقرقاب وعادة الختان والتشليح والمشاط بالنسة لبسات والعصية القليلة وقام علماءهم بتصفية الدين مما دخله من شوائب الدحل والخرافة وكل ذلك سعى مشكور الا ان المشكلة الاجتماعية بقيت متروكة للاحيال اللاحقة

هذه البورة الاجتماعية المحدودة المدى لم تكن شيئا دحبيلا على برنامج الرواد الثقافى فقد كانوا يدعون في المجال الادبى الى ادب قومى يعنى شؤوب البلاد ويعبر عن روحها الاصيل ويضع المحجوب محططا واديا لهذا الادب في كتيبه (الحركة المكربية في السودان وماينبغى ان تكون عليه) فيرى ان تكون الموضوعات المحلية مادة الادب السودانى بحيث يعبر الادب عن طبيعة السودان ومشاكله وتطلعاته بحيث يكون صدى دقيقا لمايجرى في المجتمع ثم لا يكتفى بتحديد الموضوع وانما ينتقل الى تحديد الاسلوب (اما الاسلوب فيجب ان يكون بلعنا العربية الفصحى يعتوره الاونة بعد الاخرى بعض مصطلحات بلادنا المحلية لان تلك الاصطلاحات هي التي في الغالب تميز ادب امه من غيرها فليس عجيبا ان نسمع في خطابات الرعيم الراحل سعد زغلول باشا «دى حبطنين في الراس توجع» وغيرها من الامثال والكلمات المصرية لانه مصرى قبل ان يكون عربيا يمت الى جامعة الشرق العربية وليس عجيبا ان

نسمع في السودان بعض الادباء يدخلون في كتاباتهم «الحسنة معطت شارب الاسد» او «المعجلة من الشيطان» و «من الابري وكفى» وغيرها من الامثال المسموعة) وهو يرى ان هذا اسلوبا وبال موضوعات المحلية مادة يقوم الادب القومي المنشود ثم يستورد ليوضح ان هذا الادب ليس مقصود الداته او لمجرد الامتاع الفنى وانما يراد به ان يساهم في تحرير البلاد (نتقلب هذه الحركة الادبية الى حركة سياسية تؤدي الى استقلال البلاد سياسيا واجتماعيا وفكريا - ص ٣٧) فهو لا يدعى ان الهبة الادبية المجردة تلد الهبة السياسية والاستقلال ولا يدعو الى ادب محدد له تأثيره السحرى على الجماهير وانما يدعو الى ادب خاص اذا تحقق وجوده فسوف يوجه الجماهير الى الانبعاث سياسيا وهذا الادب الخاص هو كما رأينا ادب سودانى الوجه والروح وطنى التوجه والنزعة

بسط المحجوب كل هذه الاراء في كتابه «الحركة الفكرية في السودان» الذى طبع في اواخر ١٩٤٠ - أى بعد ارماع شبح السنوات العجاف وقيام مؤتمر الخرطوم وارتفاع الصعق الوحشى الذى كان يلقيه الاستعماريون على المثقفين بعض الشيء - كان الجو مليئا بتأثير الوعى والهبة والقوى الوطنية تتأهب للانقضاض وقد استمد المثقفون من خمرة ١٩٢٤ فأيقنوا ان لاسبيل الى التحرر الوطنى بغير الالهة التامة والتسلح بالعلم والمعرفة والاتصال بالشعب لرفع روحه الوطنى ووعيه السياسى وفي هذا الجو كتب المحجوب هذا البحث واهداه للمهرحان الادبى بامدرمان مساهمة في توجيه الاديب السودانى

ورسوخ سافر بحمل الكتاب مبسم العصر في اسلوب تفكيره وتعبيره فهو من ناحية يكشف احساس المثقفين بالعزلة والتوحد بعيدا عن الشعب ومن ناحية ثانية يوضح ان المثقفين كانوا وحدهم الامل والثقافة وحدها الطريق فنجد المحجوب يتحدث عن (المثاقين) و (اصحاب الثقافة احقة) و (الصفوة المختارة) على اساس اهم صانعوا التاريخ وموجهو اقدار الامم وان دور (الدهماء) يمحصر في اتباع هؤلاء الصفوة اذ انه (لربما بقيت الدنيا في حالة من الركود لا مناص من البقاء عليها لو لا ظهور حصة من الموهوبين اصحاب المثل العليا ص ١) وتأكيدا لايامه بالبطولة الفردية يحتتم كل فصل من فصول بحثه الاحد عشر هذه العبارة «المخلصون المتفانون من اصحاب المثل العليا من ابناء هذه البلاد البررة» بل انها تتردد في صلب الفصل «الواحد مرة او مرتين

وقد لا يبدو لنا عربيا ان يؤمن المحجوب بالانجازات الفردية اذا تذكرنا

حالة المجتمع والمصر حين كتب. فقد كانت جماهير الشعب عارقة في بحار الجهل ومعرولة بقصور وعيها عن كل حركة سياسية في البلاد وكان المثقفون وحدهم في مناوئة الاستعمار سرا او علنا وبعد تجربة ثورية فاشلة تأكد للمثقفين هذا الانعزال فان الذين وقفوا امام محاكم ١٩٢٤ كانوا كلهم من المثقفين وبعد مرور كل تلك الاصوام لم ينس المثقفون بل تأكد لديهم ان خلاص البلاد يقع على عواتقهم وان على عملهم واحلاصهم يتوقف مستقبل البلاد.

ولكى يكتسب هذا الوعي بعده الثالث في وجدان الطبقة المثقفة ويرسخ في ذهنها وادراكها، ظهرت هذه النظريات التي تؤكد دور البطل وتجعل من الاستقلال المكري معرا الى الاستقلال السياسي وهذا يشترك الحيل كله في اكبار الفكر والايمان بدوره في تقدم المجتمع بحيث اقبلوا على كل فكر مهما كان مصدره على اساس انه تراث انساني فاصلين بذلك بين الفكر والمجتمع الذي ينتجه كما يعر المحجوب: وذلك لان تراث الانسانية الفكرى تراث مشترك ولا تعرف دنيا الفكر التناحر والتنافر والدسائس التي تسود عالم السياسة والاقتصاد ص ٢٥، ولذلك نراهم يتقبلون الثقافة الانجليزية ويتعصبون لها في حين يرفضون الانجليز كمستعمرين ومستعمرين

هذا الفكر الفردى الثرة يبدو نتاجا طبيعيا للمرحلة وللظروف. فالثورية المدرسية التي فرصها الاستعمار كانت ولا تزال تغدى الروح الفردى وتقويه. وكان وضع الحيل كاستقراطية مثقفة ومنمعة عن بقية الناس عاملا مساعدا كما ان اتجاه الحيل الى الادب كان اللمسة الاخيرة فقد اعطاهم الادب احساسا حادا بالذات اصبح عاملا هاما في حياتهم الفكرية فيما بعد.

قلنا ان الحيل حاص اعنف معاركة مع الحيل الوالد واستطاع ان يهزم خرافاته وتقاليد الزائفة وقلنا ان الحيل تعرض الى رد فعل عنيف من الجبهة المضادة فاصبح موضع اتهام بكافة الميوس الوطنية والخلقية وعرف تماما معنى الحرب الاحتشاعية فأدرك قيمة الحليف القوى في كل معركة وكرس نفسه لايحاد ذلك الحليف ونحت تأثير التجربة الثورية الماشلة في ١٩٢٤ اصبح احين متشددا في هذه المسألة بصورة عربية وما زال يبحث لنفسه عن الحليف القوى ويجرب مختلف انواع المصالحات حتى هدته الظروف الى ان حليمه ينبغى ان يكون أقوى سلطة في المجتمع على الاطلاق السلطة الطائفية وبسهولة عربية تم هذا الحلف المعجيب بين الطبقة المثقفة والسلطات

الطائفية فالتف كل فريق من المتعلمين حول واحد من القادة الروحيين للبلاد يستمدون منه العون المادى والادبى ويحذون عنده الامن والحماية من بطش الاستعمار الانجليزى ويجمعون الجماهير حولهم باسم ذلك الرعيم ونيابة عنه وبهذه الصورة كانت الاحزاب السودانية فى البداية حالية من اى مضمون طبقى او اجتماعى فالطبعة الواحدة تقتل وتنازع لا باسم مصاحها ولا باسم مستقبلها وانما باسم ولائها الطائفى وتعبتها الروحية وادنا كنا نلاحظ الان مظاهر التكوين الطبقي للاحزاب فان ذلك مردود الى التطورات الاحيرة فى الوضع السياسى وليس أمرا مكتسبا من الطبيعة الاصيلية لتلك الاحزاب وقد نتج عن هذا الوضع الشاذ كثير من الخلط والتحبط واصبحت البواكير الباكورة للحركة السياسية فى السودان تستعصى على التصنيف فاكثر الاحزاب يمينية يطوح فجأة الى اقصى اليسار ويتخذ اشد الاحزاب يسارية اكثر لمواقف يمينية ورجعية وتتغير الشعارات والواحات بسرعة البرق كل هذا دون ان تتأثر القاعدة الجماهيرية كثيرا فهى دائما هنالك بحكم ارتباطها الطائفى وبحكم وعيها المتخلف.

ولكن الوضع يزداد حلاء حين مذكر ان الاحزاب التى تم تكوينها على ايدى الرواد لم تكن فى الاساس طبقية الهدف فقد كانت احزابا قومية تدافع عن قضية قومية هى قضية استقلال السودان والخلاف حول قضية كهذه يرجع فى اساسه للاختلافات الفكرية والنظرية اكثر من الخلافات الطبقيية .ون الطبقة القومية للقضية هى المسؤولة عن قدرة هذا الجيل على التصالح وعقد الاخلاف بعكس رجال الوثبة ١٩٢٤ الذين كانوا يمثلون طرفا فى النزاع الطبقي الدائر بين الطبقة الوسطى الحديدية والطبقات التقليدية المستفيدة من الاستعمار بعد هذا الجيل الرائد تتحدد المعالم الاساسية للفكر السودانى وبه يبدأ عطاؤه الحديد ومع الاجيال اللاحقة تزداد تلك المعالم وصوحا وجلاء فيأتى بعده احيال اوفر استيعابا للفكر الاوروبى وتفاعلا معه واكثر احتمالا بالطابع السودانى فى الانتاج الفكرى أدبا او علما وهى هذه الصورة انها تكمل نفس البناء الذى بدأه الرواد حين بدأوا التلقى عن الاصول الاوروبية وحين اعتمدوا الطابع المحلى ولفقوا الانظار الى اهميته .

خاتمة

ان البحث في الفكر السوداني لا يكتمل برزنا الى هذه النقطة بالحديث عن جيل الريادة و لابد من التطرق الى الجيلين اللاحقين ودورهما في اثراء ذلك الفكر وتطويره ولكن ذلك مجهود ينبغي ان تتضافر عليه جهود عديد من الباحثين والدارسين ولا سبيل الى ادائه في الظروف الراهنة فضلا عن احتياجه الى انتظار طويل من جانب الباحث اذ ان الجيلين موضوع الحديث وصل احدهما مرحلة العطاء والاخر بطريقه الى النضوج وبهذه الصورة يصبح الحكم عليهما نوعا من التعجل والارتجال.

الجيل الذي يتلو الرواد مباشرة هو في نظري جيل اليقظة في الثقافة السودانية وهو جيل العطاء المتخصص المستأنى وهو جيل الدراسات فوق الجامعية وجيل التأليف الغزير والنضوج الفكري العاطفي . . انه جيل سعد الدين فوزي وهنري رياض وجمال محمد احمد ومحمد المهدي المجذوب وعبدالله الطيب وبشير محمد سعيد ورسفائهم من افاضل المثقفين السودانيين . هذا الجيل يقف الان في قمة نضجه الفكري مؤديا دوره الخلاق في خدمة الثقافة السودانية ولدراسته ينبغي ان يتوفر لنا كثير من المادة العلمية من تراجم ذاتية وسير ودراسات مفردة يؤديها متخصصون لكل مجال . . وينبغي ايضا ان تنفرج ارجح فارحب ضائقة النشر في السودان والتي تلزم المفكر بالصمت على اثاره ردحا من الزمان حتى تتوفر الفرصة السانحة لنشر تلك الآثار بحيث تظهر في تاريخ جد بعيد من تاريخ تأليفها الامر الذي يحرم الحياة الثقافية في السودان من فوائد الرصد الدقيق والمتابعة والمعاصرة بمعناها الصحيح للقضايا والانتاج.

واما الجيل اللاحق فانا امل ان يكون جيل الوعي وان يندرج اسمه في التاريخ بتلك الصورة بصفته الوريث لمجهودات تلك الاجيال العظيمة من الرجال وبالفرص التي يتيحها له الاستقلال وظروف العصر ليكتسب وعيا كاملا بذاته وبعصره . . والبواكير التي يقدمها اليها هذا الجيل تدعو الى كثير من الرضاء والطمأنينة وكثير من الثقة بمستقبل الثقافة في السودان .

اختتم حديثي عن هذه الحقب التاريخية موقنا اننى ظلمت الكثيرين من
 المفكرين السودانيين على مدى الحقب لا عن قصد ولا عن تغافل فان اللوم
 يرجع الى ظروفنا الثقافية الشاذة التى تقضى بأن تشرذم الآثار العلمية والفنية
 وتقع فى ادراج المكاتب وخزانات الكتب وان يصبح الحصول عليها اصعب
 من الحصول على شجر الاكسیر نسبة لظروف النشر الثقافى فى بلادنا وقلة
 المعنيين بجمع التراث ورصده وتسجيله الى ان تزول تلك الظروف اقول ربما
 نلتقى لتراجع ونحذف ونضيف والله الموفق والمستعان .

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

بإحسان

محتويات الكتاب

الموضوعات:

القسم الاول

الاصول

اصول الفكر السوداني

اللغة العربية

التصوف

العهد التركي

المهدية

القسم الثاني

مراحل التطور

الفكر السوداني بعد ١٨٩٩

المهزومون

ورثة الهزيمة

محمد سعيد العباسي

احفاد الهزيمة

الوثبة ١٩٢٤

السنوات العجاف

الرواد

خاتمة



كتب
صدرت
للمؤلف

- ١٩٦٩ ديوان أمّتي
بعض الرّجق أنا
والبرقالة أنت
١٩٧٦ في خباء العامرية
ينبتى البستان
١٩٨٩ في الوردة

كتب تحت الطبع :

مزرعة اليمام
بين نار الشعير ونار المجازيب
"دراسة في أدب محمد مهدي الجيزي"